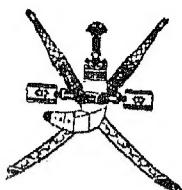


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رَحَلَةٌ إِلَى عُقْمَانٍ

تأليف
ونيدل فيليبس

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

رَحَلَتْ إِلَى عَمَّانَ

نألف
وينيل فيليبس

ترجمة
محمد أمين عبدالله

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

« ان الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هى على مسئولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عمان »

الفصل الأول

الجبل الأخضر ومسقط

« الطيران الى عمان - الجبل الأخضر - في مسقط مع

جلالة السلطان - جلالة السلطان وعائلته الكريمة »

« ان وجود مثل هذه الدولة العربية كدولة
عظيمة مكتملة البنين فوق هذه الصحراء حيث
تصعب المعيشة على الانسان ، هو أوضح مثال
للذكاء والفطنة ، فهذه الصحراء النادرة الماء ،
بأرضها الفقيرة الملحة المتميزة بلا ثمر • لهى
أكثر من صحراء » •

« سير جون مانديفيل »

ما زال بامكاننا رؤية القطاع الجنوبي المتراعى الأطراف ، والشمس
أكثر حمرة ، ثم هاهى ذى وقد تحولت الى اللون الذهبى ، ثم طلّت من
ياقوت البحر الأزرق •

حدث ذلك فى يوم من أيام رحلتنا ، عندما بدأنا السير على ذلك الممر
الخشن ، يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٥٨ ، وفى وقتها كانت طائرتنا
(الداكوتا) تقلع من الممر الأرضى للجزء الداخلى لشجيرات جوز الهند
فى صلالة ، وهى تمثل ثلثى الطريق الذى قطعناه فى رحلتنا من عدن لمسقط •

وبعد عبور جبال القراء طرنا فى الشمال الشرقى ، لمدة ثلاث الساعات
التالية ، فوق الرمال الصفراء والحمراء الخالية ، والعديمة الملامح ، ثم
فجأة تحول اللون الأحمر الى أزرق داكن ، حين مررنا فوق سهل رملى

ملىء بالحمى ، ومع ظهور الجبال العالية البعيدة ظهر قطيع من الماشية ، وعلى اليمين بدت الواحات الجميلة الخضراء ، ذات المنازل الرمادية الصغيرة ، التى تجمعت كعناقيد حول الأحواض المائية المتلائة ، التى كانت تسطع مثل المرايا •

وخلف هذا كان هناك على اليمين وعلى بعد ١٩٠٠ قدم بلدة صغيرة تجاه الجبال بجوار الوادى الفسيح ، هى نزوى ، وقد خرجت هذه البلدة بمعالمها الى الأنواء منذ شهور قليلة ، وذلك أثناء التمرد السقيم الذى حدث ضد النظام الشرعى القائم •

والى اليمين من نافذة الطائرة كان هناك جدار هائل من الحجارة ، يكاد يزاخم السماء بارتفاعه الشاهق ، حتى لقد أحسست وكأنه لمس جناح الطائرة ، وعلى الجانب الآخر كانت هناك قمة شاهقة للغاية •

وبينما كنا نستكشف الجبل الأخضر العظيم •• رأيناه مساحة هائلة من الأرض المقفرة العارية ، ذات الارتفاع الهائل (١٠٠٠٠ قدم) ، وهى بمثابة العمود الفقرى والمركزى لعمان •• والجبل الأخضر العظيم •• أو الجبل ذو الرداء الأخضر •• بالفعل ، وبلا أية مبالغة ، ليس جبلا عاديا ، لأن الصخر الذى يتكون منه هذا الجبل له لون أخضر قاتم ، كالبرونز العتيق ، والجبل كتلة صخرية ذات عشب وأشواك ، تمتد فى أماكن متسعة متفرقة ، وعلى رأسه ترقد قمة ضخمة غير مستوية ، واضحة أمام العين •

ولقد كان الجانب المواجه لنا بصفة خاصة عمودى الشكل ، ويبدو الجناح الطرفى وكأنه سكين حادة •• أما الجانب الآخر فقد كان جدبا وقاحلا وقد جمعنا بعض الصور التى التقطناها ، وهى بمثابة « بانوراما » رائعة خيالية ، من الصخور والقمم ، قطعتها عصور جيولوجية منذ حقبة بعيدة ، وهناك مساحات وعرة هائلة ملبئة بالمقابر ، وتوجد شقوق عميقة غريبة الشكل ، تشبه الجيوب الضيقة العميقة •

وهناك الأودية الضيقة المليئة بالشلالات والجارى ، وهناك الجدران المغطاه بالنباتات ، وهى كالعذراء التى يتدلى شعرها على الظهر ، وتروى هذه النباتات عن طريق أمطار الشتاء الغزيرة ، التى تختزن معظم السنة ، وهناك نوع من الزراعة الناجحة فى النصف الأسفل من الجبل ، حيث ينمو الثوم ، بينما ينمو الزيتون وشجر الأرز فى النصف الأعلى •

وهناك أساليب محكمة للرى الصناعى ، تقوم برى مساحات الأرض فى الأحراش الموجودة ، فى الأودية الصخرية الضيقة ، وهناك خزانات كبيرة لرى حدائق أشجار الفاكهة ، مثل المشمش ، والخوخ ، والرمان والتوت ، والموز ، والجوز ، والتين ، كما بين ب • أوتشرايلوى ١٨٣٦ ، ذلك العالم الفرنسى ، الذى لم ييأس من قطع هذه المنطقة على الأقدام ، وقد جمع حوالى مائتين وخمس وعشرين بصيلة نباتية ، ثم عاد بعد ذلك الى مسقط عن طريق وادى سمايل • • وقد جاء المستكشفون الانجليز الأوائل أمثال ج • ردليستد و ه • ه وايت لوك قبل ذلك بعام الى قلب عمان ، وسجلوا دهشتهم واعجابهم ، وتساءلوا هل هذه هى المدينة العربية التى كنا نحسبها مجرد صحراء •

وتمتد مزارع الحبوب وقصب السكر الخضراء ، وتتدفق أماننا جداول مائية ، تعبر عن الوجه السعيد للفتوح للفلاحين ، الأمر الذى يساعد على استكمال الصورة الجميلة للمجتمع على الجبل الأخضر ، فالسكان مرتبطون بالأرض الى حد كبير ، وهناك الولاء والطاعة للعصبة وللأسرة • • وتوجد اثنتا عشرة مجموعة قوية لقبيلة بنى ريام التى تسكن على سطح الجبل ، ولكل مجموعة شيخها ، وهناك أربع قرى رئيسية ، ومجموعتان من الرحالة يتجولون على الجبل بوجوههم القوية ، على حمير الجبل ، ودواب رائعة قادرة على حمل أية أثقال ، وهم يتفخرون بحياتهم هذه •

ولقد عرف هؤلاء القوم مسالك الجبل والطريق منذ ساعة ميلادهم ،

ومن المعتقد أن العدد الاجمالي لسكان الجبل يصل الى حوالى ١٦٠٠ نسمة ، والقرى مبنية بنساء قويا من الطين والحجر • والأسقف شديدة الصلابة مصنوعة من الصلصال الأحمر ، لتحميهم من متاعب الشتاء ، والأبواب مصنوعة من الجوز وخشب السندال ، تتميز برائحتها الجميلة ، ويتم تزيين أبواب الطرقات منها •

وبينما كنا فى الطائرة كانت الأودية تتسم بشريط صغير أخضر ، يخرج فى أشكال مختلفة مع كل منحنى للمجرى الكبير بمساكن صغيرة ، تنتشر هنا وهناك ، وقد طلبت من قائد الطائرة أن يدور مرة أخرى ، لكى يغطى الجبل الأخضر مرة ثانية ، حتى يتسنى أن نكمل تصوير الفيلم •

وقد كان بيل تورى رفيقى ، الذى يقوم بالتصوير •• وقد صحنى كثيرا فى رحلاتى الاستكشافية العربية والافريقية • وقد قام قبل ذلك بتصوير الهجوم اليابانى على بيرل هاربر ، ومع أن الجو كان باردا فقد كان تورى مبلا بعرقه نتيجة صعوبة حمل الكاميرا (م م ١٦) وقد كان يتدلى من الكابينة فى جهد شديد لضبط الزوايا •

وقد قام الطيار بدورة كبيرة ثم انخفض بالطائرة مرة ثانية ، الى قلب الجبل ، متأرجحا من مكان الى آخر ، هابطا الى الكهوف والمنخفضات السحيقة ، التى رآها الفلكيون من قبل على الطبيعة •

حقا لقد كانت تجربة ممتعة ، أن نشاهد ظلا لطائرنا على وجه الصخور القوية ، وهى تبتعد مرة للأمام ، ثم تتسلق مرة أخرى فوق بعض القمم أمامنا مباشرة ، وقد أحدث دورانها صورا تشبه لعب الضوء والظلل ، وتغير الأخضر الى الرمادى ، والأصفر الذهبى ، والأودية العميقة المظلة ، وأشعة الشمس الناعمة على الأطراف المرتفعة •

لقد خلق كل هذا نوعا من الأحاسيس الجميلة ، يصعب على

الانسان نسيانها ، فالطيران فوق الجبل الأخضر في عمان كان بحق أعظم تجربة جبلية •

وبعد التزود بالوقود من الغرب •• وجدنا أن الجبل الأخضر العظيم ينحدر فجائيا الى الشرق • كما لاحظ الكولونيل س • ب ميل من قبل عام ١٨٧٦ ، وان الانحدار المفاجئ للأطراف الشمالية والجنوبية يجعل الوصول الى هذه الكتلة الصخرية صعبا ، اذا استخدمنا السهول ، الا عن طريق الأودية الضيقة •

وبالعودة الى القرن العاشر نجد أن الفرس قد استطاعوا غزو هذه الأطراف ، رغم صعوبة الوصول اليها ، ورغم أن العمانيين قاتلوا بشجاعة ، وقد كانوا يلقون الحجارة الضخمة خلال تراجعهم ، خطوة خطوة ، وهم يدافعون عن قلعهم الأخيرة •

وللجبل الأخضر مظاهر عديدة يمكن أن تراها ، وأنت في البحر على بعد مئات الأميال •

وأثناء طيراننا لأقصى الشرق كنا نرى منازل ومساحات من الأرض قليلة الزراعة ، وعلى البعد ظهرت أشجار النخيل الممتدة على الشاطئ ، ثم ذهب بنا قائد الطائرة لأسفل ، حيث مستط ومطرح بأشجارها الخضراء والكتل السوداء الخاصة بالساحل الصخري ، والآثار البرتغالية القديمة ، والمباني البيضاء اللامعة •

وفي طريقنا من مطرح كان أول شيء عرفته ، هو سعادتي الشديدة بمعانقة الرئيس الصومالي جاما •• والذي قد صاح بالعربية « الشكر لله » وقد حياه البروفيسور الكسندر (الكسندر م هانيمان) ، وقد تكرم السلطان بارسال الأستاذ محمد أمين لكي يقوم بإجراء مراسم الاستقبال ، وبصحبتة مستشار السلطان للشئون الدفاعية •

وقد قادنا مرشد السلطان بأقصى سرعة ممكنة تاركين وراءنا القرى الصغيرة والجمال والأصدقاء ، وذلك عبر الطريق من المطار بحافة شاطئ البحر بمسافة كبيرة ، ثم الى الداخل حيث مكتب الجمارك ، وبعد ثلاثة أميال خفقت قلوبنا لمنظر مسقط الرائع ، فهي بقعة على ساحة مسرح قديم على ارتفاع (٤٠ — ٩٠ قدما) ثم الميناء الذى نحت فى الصخر •

وقد قال اللورد كورزون : ان هذا الميناء هو أروع صورة مجسدة فى الشرق ، وانه بالتأكيد هو أحسن وأعمق ميناء فى كل الجزيرة العربية •

وقد ذكر ويلستد ذات مرة : انه لا يوجد فى العالم كله ما يماثل هذا المنظر الجميل والرومانسى لمسقط ، وعلى الجانبين كانت هناك صخور شديدة الصلابة على ارتفاع ٣٥٠ قدم ، تنتشر فى كل اتجاه ، وهناك المدينة البيضاء المطلة على الشرق والغرب بصخورها العمودية ، وعلى أعلى نقطة لهذه القمم العمودية توجد الأبراج ، بنوافذها ذات الأشكال المختلفة ، وقد تركها أبناء الامبراطورية القوية الفارسية والبرتغالية ، وتاركين أيضا أرضا بورا وصخورا سوداء • ويخيم الصمت والسكون القاتل على هذه الجبال ، بصخورها العارية الخالية من النبات ، والتي تحرم مسقط من كل نسيم بارد أثناء الفصل الحار ، وتمص قسوة الحرارة أثناء اليوم ، لتخفها بعد غروب الشمس • ولا توجد ظلال لهذه الجبال الشاسعة ، ومن حين لآخر تهب على مسقط فى ليالى الصيف رياح غربية ، ترحف من الجبال المرتفعة مما يرفع درجات الحرارة الى حد لا يطاق •

ومع ذلك فبمجرد دخولنا المدينة فى منتصف الشتاء كان الجو باردا الى حد ما ، وكنا محظوظين ، حيث ان مناخ المدينة كان أحسن حالا من أول مايو ١٨١٠ •

وقد كان مناخ مسقط هو الشيء الوحيد الذى يتميز بانطباع خاص لدى المسافرين فى الماضى •

فقد وصل ابن بطوطة مسقط القديمة سنة ١٣٤٧ م وقال عنها
« انها بلدة صغيرة بها أسماك كثيرة » * وفي سنة ١٥٠٧ م قال عنها
الفونسوى البكورك : انها مدينة كبيرة آهلة بالسكان ، وانها المركز
الرئيسى لهرمز ، بينما اكتشف الرحالة الايطالى بىرودى لافال عام
١٦٢٥ م أن مسقط بها كنيسةتان وبعض الأقليات الأجنبية *.

وسجل « جون ستروز » أن هذه المدينة على كبرها وحجم سكانها
فهى قليلة السكان بالنسبة للماضى ، وخاصة عندما استولى ملك الفرس
عام ١٦٢٢ على هرمز ، وعندما كانت مركزا للبرتغاليين والعرب ، ففي
المقرن الثامن عشر كان الميناء مزدحما بالصواري الكبيرة ، وكان مليئا
بالتجار والقوارب الشراعية من البحر الأحمر وكراتشى ، وكانت القهوة
سلعة هامة فى البصرة *.

وفى عام ١٧٢١ أبحر « كابتن الكسندر هاميلتون » الى ميناء مسقط
بمركب ، بحمولة تقدر بمائتى طن وائتى عشر مدفعا ، وذكر بعد ذلك أن
مسقط قوية جدا بطبيعتها ، وغنية بفننها ، ولكن مبانيها متواضعة ، وأن
سكانها طيبون ، ييغضون التفاخر ، والتباهى ، ومازال المبنى الذى
بناه البرتغاليون يحمل بعض المعالم الحضارية ، وقد تحول الآن الى مقر
يقيم فيه السلطان بصفة عامة ، شهرا كل عام ، ويتخذ السلطان مقرا
للحكم بصفة عامة فى نزوى والرسناق ، اللتين تبعدان عن مسقط مسيرة
أربعة أو خمسة أيام برا ، حيث يدير من هناك شئون الدولة *.

ومن الأحداث الهامة التى شهدتها مسقط زيارة المستكشف الدانماركى
« كارستون نيهور » عام ١٧٦٥ ، وهو أول عالم حقيقى يصف الجزيرة
العربية ، وقد كتب واحدا من أعظم وأهم البحوث الوصفية عن عمان ،
وفى هذه الحقبة ، أثناء حكم السيد أحمد بن سعيد لم يكن هناك مستوطنون
أوربيون فى المدينة ، وكانت حامية مسقط مسلحة بالسيوف والخناجر
والبنادق ، وكان مرتب كل جندى أربع روبيات كل شهر *.

وبعد عشر سنوات مكث « الكابتن جورج » بسفينته في ميناء مسقط لمدة شهرين ، وكانت سفينته « سى هورس » مجهزة بعشرين مدفعا ، الى جانب مساعد القبطان « هوراثيون نيلسون » الذى أصبح فيما بعد بطلا لوادى النيل ، والطرف الآخر •

وفي الحروب النابليونية حاصر الأسطول الانجليزى الأسطول الفرنسى في هذه الميناء ، بينما تسلل الأسطول اليابانى أثناء الحرب العالمية الثانية الى الداخل ، وضرب بالطوربيد سفينة تجارية نرويجية •

وليست هناك مصادر طبيعية في مسقط • والسكون يحتضن القمم العالية للجبال ، ذات الصخور الصلبة ، رغم أن هناك ممرين الى الجنوب والغرب يقدمان مدخلا ملائما الدخول ، خلال هذه التحصينات الضيقة • وتعتبر مسقط وبلا جدال هى النافذة الرئيسية التى تطل منها عمان على العالم ، وهذه النافذة منفتحة للخارج ، وليس للداخل ، وليس هناك منفذ لاختراق هذه الأسوار الطبيعية •

وزيادة السكان تتجه الى مطرح ناحية الغرب ، أو سداب في الجنوب ومنظر قرية الصيد في سداب يدهشنا بحدائقها الغناء ، والقمم المختلفة التى تحيط بها ، وتطل برءوسها على البحر ، وهنا يوجد صهريجان في الوادى الكبير يمدان مسقط بالماء ، وليس هناك شارع رئيسى ، اللهم الا بعض الأزقة الضيقة المؤدية الى نوع من التجمعات المركزية ، وفي الأماكن الجنوبية الغربية لهذا الجزء من المدينة يوجد سور كبير ذو خندق ، والبوابة الوحيدة المؤدية الى المدينة المحصنة حجمها كبير ، بدرجة كافية لمرور السيارات ، وهناك السور الغربى ، المعروف بالبوابة الكبيرة ، والذى أعيد ترميمه منذ سنوات قليلة ، بناء على طلب السلطان ، وهناك أماكن للجلوس في ممر البوابة ، حيث تدور فيها الأحاديث التى لا تنقطع ، وحكايات الحراس والمواطنين ، وتغلق الأبواب كل ليلة بعد ثلاث ساعات من الغروب ، وتطلق ثلاث طلقات من المدفع لفتح الأبواب للسيارات

الخاصة بالسلطان ، أو المسئولين ، وبعد اغلاق البوابة الرئيسية يمكن للمشاة دخول المدينة ، خلال باب صغير ، في احدى البوابات الكبيرة ، ولكن بتصريح ، ولابد من وجود كشافات مع المسارة عند الوصول الى مسقط التي تضم حوالى ستة آلاف نسمة •

وكنا نرى السيدات محجبات ، يعلقن حلقات في أنوفهن للتحلى بها وللزينه ، ويقول ج • ويلستد : انه لاحظ طول النساء ، وانه شعر بإكتمال في شخصياتهن ، وانهن لا يفضلن البدانة ، وجاذبيتهن أكثر من كل نساء الجزيرة العربية •

ويذكر ج « س باكنجهام » عند زيارته لمسقط في سبتمبر سنة ١٨١٦ أنه بغض النظر عن عدد السكان ، الذى يقدر بحوالى عشرة آلاف ثانه ليس هناك مسيحيون في مسقط • وقال أيضا : انه وجد شعب مسقط أنظف وأكثر اعتناء في الملبس ، وأكثر كياسة من كل العرب الذين رأهم في حياته ، وأنه قد أعجبه مظهرهم ، وشعر فيهم بالثقة والعزيمة القوية والاحترام •

ويقال ان لمسقط قدم في الجزيرة العربية ، وقدم في الهند ، حيث كان الهنود يسيطرون على السوق ، ومعظمهم من بومباى ، وبعد مجيء فريق التجار الهنود كانت العملة الهندية هى وسيلة التبادل ، والعمال والعمالون هناك من أصل سنغالى ، أو إيراني ، بينما يكون العرب ، الذين يمثلون نصف السكان الطبقة الارستقراطية في المدينة ، وهم يرتدون ملابس على النمط الفارسى القديم •

وأصحاب الديانات غير المسلمين لهم حريتهم في عبادتهم ، بلا تدخل ، وكان للارتباط مع زنجبار وشرقى افريقية تأثير كبير على اللهجة المحلية ، وربما يتحدث الشخص مثل رحالة الصحراء ، ويستخدم كلمات معينة وعبارات وجمل مركبة ، تقترب من اللغة القديمة ، بينما يستخدم الآخر اصطلاحات مبسطة ، وينطق لهجات قريبة من لهجات اللغة الفارسية

وأبناء الخليج ، وبصفة عامة فان لغتهم مليئة بالكنة الانجليزية ،
والهندوستانية ولها ميزة تنتمي الى مسقط وحدها ♦

والفقراء في مسقط ليسوا سعداء بقرهم ، وهم يرفضون أن
يتحملوا الفاقة ثانية ، ويجري في دمهم الأساس العقلي الديني الراسخ
المجمل للإسلام ، وهو أن الحياة الدنيا قصيرة ، ويجب أن ينظر الانسان
الى ثواب الآخرة ، وقرهم ليس سببه تخاذلهم أو ضعفهم ، ولكن فرص
العمل قليلة ، لذا فليس من الدهشة أن يحاول الشباب المسقطي ذو الطموح
الرحيل ، رغم أن هذه الرغبة لم توجد الا في السنوات القليلة الماضية ،
ونؤثر الثقافة الاسلامية ، وخبرة الحياة عليهم كثيرا ، بحيث لا يمكن
للطفل أن ينساها ، وفكرة الملكية الخاصة ينظر اليها باهتمام وأفضلية
في مسقط ♦

وكل المنازل تبنى عادة من الطين أو الحجر والخرسانة ، وربما يمتلكها
السكان المحليون أو الأجانب ، وتؤول الأرض ، التي لا تثبت لها ملكية
للدولة ، فتكون تحت اشراف الحكومة ، وكل المباني خاضعة لقانون
الاسكان في مسقط ومطرح ♦

ومن الضروري الآن أن نتوقف للحظة لنتحدث عن سبب وهدف
وحكاية وجودي في مسقط ♦

ففي عام ١٩٥١ نظمت رحلة استكشاف عربية ، وهي رحلتي الثالثة
للكشف عن حفریات تمثال القمر في المملكة المحظورة « اليمن » ، وتمثال
الإله « إيليوكا » في العاصمة القديمة لمملكة سبأ ♦

وفي ١٢ فبراير ١٩٥٢ أجبرتتنا السلطات الرسمية في اليمن المضيفة على
ترك كل معدائنا ، والهرب من أجل انقاذ أرواحنا ، وقمت أنا بقيادة
المجموعة في الكثبان الرملية الناعمة ، وأصبت بخيبة أمل كبيرة ، ليس فقط

— ١٥ —

من أجل الحفريات التي لم أجدها ، ولكن من أجل المعدات أيضا ،
والوحدات الطبية ، والآلات التصوير •

ومن قبيل المصدفة — وليس الترتيب — أن وصلنا الى عمان ، ومن
حسن حظي اني تقابلت مع جلاله السلطان المثقف عام ١٩٤٩ عندما عبرت
جنوب افريقية ، واستقبلني في مسقط ، ودعاني أن أقوم برحلتى
الاستكشافيه الى عمان ، للحشف والتنقيب ، وشرحت له ما حدث في
اليمن ، وخسائرنا هناك ، واننا لن نستطيع عمل الكثير ، واذا وافق على
مدنا بالمعونة فاننا سوف ننجز عملا كبيرا • وقد قدر جلالته ظروفنا
ومتعابنا في اليمن ، ورحب بنا ، وتعهد باعطائنا كل ما يلزمنا في
برنامجنا •

وبعد بضعة شهور أدركنا عطف وكرم السلطان ، فقد أمدنا بالآلاف
من الدولارات التي أخذناها ، وأعطاها لنا السلطان ، وقد اعتبرها مساهمة
في البحث ، وكان هذا الكرم أثمن بكثير من الاكتشاف الفعلي للمدينة
المفقودة •

ومن هنا جاءت رحلتى الرابعة ، والتي أنناولها هنا •

وتقدمنا « البروفيسور الكسندر هانيمان » من جامعة « أندروز »
والذى كان هو الملاح المحنك في رحلاتنا الأولى ، تقدمنا ، وشيد مركزنا
في منزل مبنى من الحجر ، والطين والرخام ، أعطوه لنا — بكل عطف —
من تاجر هندي • تقدمنا البروفيسور كقائد لنا ، وكأستاذ في اللغات
القديمة في أقدم جامعة في « أسكتلندا » ، فهو متخصص في العبرية ،
والعربية ، والأرمنية ، والفينيقية ، وكل ما كان يهمنا هنا هو معرفته وفهمه
للنقوش في شبه الجزيرة العربية •

وكانت المجموعة كلها في هذا الموقع الجديد من المحاربين القدماء
باستثناء « ريا كلفلان دو » التي تبلغ من العمر ٢٨ عاما ، وكانت تدرس

للحصول على الدبلوم ، تحت اشراف عالم الطبيعة « وليم * ف * البريت » في جامعة « جون هوبكنز » ، وكانت « كلفلاند » قد بدأت في دراسة علم الآثار ، تحت اشراف « البروفيسور كادلين كاكسياتين » أثناء عملها في « جاركوا » وكنا لانزال ننتظر « الدكتور لويس روس » في صحار ، وقد كان في طريقه من البحرين *

وكان السلطان يؤيد وبحماس رحلتنا ، وقد ساهم جلالته ، ليس فقط بالنفود التي كنا نحتاج اليها ، ولكن الأكثر أهمية هو الشيخ شاكرا ابن حماد ، الذي اصطحبني في زيارتي لتعرف على صحار ، منذ ثلاثة أشهر ، كرئيس للارشاد ** وقد اختيرت صحار كهدف لنا ، لما ذكره الجغرافيون العرب القدماء عنها ، من اوصاف براقة للآثار الكبيرة بها ، من بقايا المعارك أو الاحتلال * وقد رافقني في رحلتى الى مسقط أمي وأختي مادلين *

وقد علمت أن جلالة السلطان ولد عام ١٩١٠ قبل سنوات ثلاث من تنصيب والده ، تيمور بن فيصل ، لشئون السلطنة ، وبتنازل والده له عام ١٩٣٢ أصبح السلطان سعيد هو سلطان عمان * وجلالته يجيد التحدث والقراءة والكتابة بالانجليزية باتقان ** وهو ذو مزاج معتدل بهي الطلعة والمنظر ، ذو طبيعة أصيلة وأدب جم ، كريم مع زواره وضيوفه ، وهو مسلم ، تقى ، مخلص ، وغير متعصب ، ومع ذلك فهو عربي مكتمل *

وكان للسلطان تأثير كبير على سياسة بريطانيا العظمى وأمريكا ، وهو يستمع دائما الى الاذاعة البريطانية ، ويطالع المجلات الأمريكية ، وهو رجل ذو تقاليد محافظة ، لا يفتنى السيارات الفاخرة أو الطائرات أو اليخوت ، ولكنه يتمتع بالحياة البسيطة ، ويفضل اجتياز الصحراء بعربة جيب ، ويخلو أحيانا الى نفسه ، وهو رياضي حقيقى ، ورام ممتاز ، ومصور بارع ، ذو ذوق رفيع ، وله زوجتان ، أنجبت الثانية

ثلاثة أطفال ، والولد الوحيد حسن المظهر ، وذكى للغاية ، وهو السلطان قابوس ، وقد تخرج من كلية « سانت هيرست » الملكية في سبتمبر ١٩٦٢ •

وعندما كان قابوس غلاما اعتاد والده السلطان أن يغرس فيه مبادئه وأهمها ، أنه مثل سائر العمانيين ، وأنه يجب أن يعمل ، وأن يعنى بتأهيل نفسه على المجادىء القويمة حتى يكون له مركزه الخاص .

وقام السلطان بالترحيب بنا بحفاوة ، ثم اطلعنا على حوض فضى
حفرت عليه نقوش جميلة ، كان قد أرسل هدية من روزفلت عام ١٩٠٧
لجده ، السيد فيصل بن تركي ، الذي كان على العرش وقتها ، وكان
الحوض مذيلا « من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الى عظمة سلطان
عمان » ثم قادنا السلطان الى مقصورته الخاصة لرؤية الميناء ، الذي
تحيط به حصون قلعتي الجلالى والميرانى * * وقد شيد قصر السلطان
على قمة صخرية ترتفع حوالى ١٥٠٠ قدم عن سطح الماء ، وذكر
جلالته ، أن أحد القواد البرتغاليين الأوائل ، ويدعى « مورد » قد
شيدته ، وبمرور الوقت فان الحصن الغربى والأكثر ارتفاعا بقليل ،
وأكثر تعقيدا فى التصميم قد تم تعديله بمهارة كبيرة بعد استخدام
المساحة الفسيحة المتاحة بجواره ، وهو يسمى الميرانى ، فى حين أن
القائد الفارسى ، المدعو جلال ، قد شيد هو الآخر حصنا ، ولهذا سسمى
حصن الجلالى ، وهو يمثل من الشرق قمة عالية من الصخر ، ويقف
شامخا فخورا *

وقلعة الجلالى يمتد تاريخها من سنة ١٥٨٩ ، وهى أصغر حجما ، ومع أنها أكثر مساحة من الأخرى الا أن الفتحات التى كانت تطل منها المدافع لازالت موجودة بها . والقلعة ذات برج دائرى فى كل طرف ، هو الآن يستخدم كسجن ، وبه خمسة وثمانون سجيئا ، وهم من المنشقين ومثيرى المتاعب فى الداخل ، ورغم أنه فى اليمين يتم قطع رعوس

(م ٢ — رحلة الى عمان)

مثل هؤلاء بسهولة شديدة ، بعد صدور قرار ملكي بذلك ، الا أن السلطان يعاملهم معاملة طيبة ، ويرسل طبيبه الخاص اليهم ، مرتين أسبوعيا ، وعندما يجد الطبيب أن حالة أحدهم تستحق الانتقال يرسله الى المستشفى .

والمدخل الوحيد لقلعة الجلالى هو شاطئ الميناء بدرجاته الصخرية المنحوتة في الصخر الصلب .

وهما يروى عن هذا الحصن ، أنه ذات مرة هرب سجين منه بإدلاء جبل من البطاطين ، ونزل الى المحيط ، ولكنه لم يجد مكانا ينزل اليه فانتحر .

وفي ١٤ فبراير سنة ١٩٦٣ . حدث أول هروب جماعي يعرف في تاريخ السلطنة من سجن الجلالى ، وقد كان العدد المعتاد للمساجين لا يتعدى ١٠ — ١٥ في كل حجرة . ولكن كان هناك أربعة وأربعون سجيناً ما بين قتلة الى تجار أسلحة ، كلهم في حجرة واحدة ، لوجود اصلاحات في السجن في ذلك الوقت ، ولم تكن أيدي المساجين مقيدة بل أقدامهم فقط ، فقام بعضهم بفتح السلاسل الملتفة حول أقدامهم ، وبدأ التخطيط ببراعة للهروب ، ولم تكن هناك أقفال مفتوحة ، وقد فك المساجين عددا من المدافع ، واستخدموها في الحفر ، وأثناء النهار كانوا يغطون الفتحة التي اتسعت بدس الملابس القديمة فيها . ثم ربطوا بعضهم ببعض ، ونزلوا على الصخور وكانت حادة تحت أقدامهم العارية ، لذلك فقد امتلأت الأرض بدمائهم ، وتم القبض عليهم جميعا في حوالى ٢٤ ساعة الا واحدا ، تم القبض عليه بعد ثلاثين يوما .

والقصة التالية للبرتغاليين القدامى لازالت تروىها البوابة الداخلية لقلعة الميراني ، وقد أعطاني ، « البروفيسور روبرت سيرجنت » تفاصيل أكثر عن تلك القلعة ، والنقوش ، فقلعة الميراني كما تسمى الآن كانت معروفة للبرتغاليين بقلعة (كابتن) وتم بناء الحصن فيها عام ١٥٥٢ ،

وكان تجسيدا للهدف الذى أبحر من أجله البرتغال ، وعندما هوجمت المدينة بقوات البرابرة سلب الأتراك الحصن ، وتركوه خاويا ، بعد أن أغار على بك سنة ١٥٨١ م ونهب مسقط ، وأدركت الحكومة فى لشبونة أن الاجراءات يجب أن تتخذ لتقوية الدفاع والأمن ، وذلك قبل عام ١٥٨٦ م عندما صمم نائب الملك على بنائه ، ويبدو أن « دوم ديوارت » هو الذى وضع الخطط ، ثم خضعت البرتغال لحكم أسبانيا « فيليب الثانى » ولا تزال النقوش تحمل اسمه ، ثم أعيد بناء الحصن .

وهناك خط لاتينى على النافذة الخارجية فى الجدار الجنوبى الغربى فى الكنيسة الدائرية الواقعة على قمة الميرانى ، وعلى الحوش الأسفل للحائط الشرقى هناك كتابات برتغالية ، والجدران الرمادية للجلالى والميرانى تطل على أحداث تاريخية امتدت أربعة قرون ، ولها منزلة عظيمة فى نفوس سكان مسقط ، وان الأسرة الحاكمة تعيش فى ظلاله ، بعد أن أصبحت مسقط هى العاصمة .

الفصل الثاني

الدين في عمان

الآثار الاسلامية - المساجد في عمان -

البعثات المسيحية - احترام المسيحيين

« ليس هناك خطأ أكبر من خطأ بناء حقائق عامة على أساس من المعارف الناقصة أو الضعيفة ، ومن لا يعيش مع العرب لا يمكنه أن يلم الالمام التام بأحوال وطباع ملايين المسلمين في آسيا وافريقيا ، ولا يمكنه أن يقول شيئاً صحيحاً ، ومؤكداً عن المجتمعات المتفرقة هنا وهناك ، فلا بد من التعايش كي يقوم أحدهم بالتعليق ، أو الحديث عن الاسلام والمسلمين » ..

« الفريد غليوم »

ان المجتمع العماني مجتمع مسلم ، يعتقد الفرد فيه أنه من الإثم أن يشير الى المستقبل دون أن يذكر عبارة « ان شاء الله » .. وهذا دليل على أن الزمن لم يستطع التأثير على المقيم الموجودة .

والمسلم فخور ، معتر بنفسه ، مستقل بذاته ، ذو نفس قانعة راضية ، هادئ الطبع لا تثيره حتى الأحداث ولو كانت من أعدائه ، وأهم ما يشغل الغالبية من الناس هو « ماذا تأكل ؟ ماذا تشرب ؟ ماذا ترتدي ؟ » . ولم يحصل معظم الناس على قسط وافر من التعليم ، ولكنهم يختلفون لحد كبير عن البدو ، في تمتعهم بقدرة فائقة على الملاحظة .

ويرى العربى أن المسيحية هى شكل من أشكال الديانات نقية فى الأصل ، أى فى روحها ، ثم تم تحريفها بعد ذلك ، بينما القرآن الذى لا يضاهاى هو الكلمة الخالدة لله ، وبمقارنة عيسى بن مريم بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك الاسم الذى ارتبط ارتباطا وثيقا بالله سبحانه وتعالى ، نجد أنه بينما أعطى القرآن سيدنا عيسى وضعاً مميزاً ، وذكر أنه كلمة الله ، وروح من الله ، وذكر أنه وليد العذراء مريم بلا خطيئة — نجد أن الانجيل لا يشير الى النبى محمد بشيء يعد أن حرفوه ، طمسوا لمعالم النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، الذى كانت رسالته الاسلام ، وكان القرآن هو المعجزة التى قامت عليها رسالته * والواقع أن الرسول الكريم قد تميز بأنه كان لديه كل المؤهلات المطلوبة لقيادة الدعوة الموحى بها اليه من ربه ، جل وعلا ، وقد أصبح كذلك بالفعل فى المدينة ، هذا الى جانب درايتته الكافية بالتقاليد السائدة ، وقد قدم — كنبى — عنصراً جديداً للمجتمع القبلى ولغيره من المجتمعات * ولم يتمم بالغاء القانون التقليدى فقط ، ولكنه قدم أيضاً قانوناً إلهياً ، وهو القانون الأعلى والأعظم ، وخلق مجتمعاً سياسياً أكبر ، وهو الأمة أو الدولة الاسلامية ، ومع أنه لم يخلع على نفسه أى ألقاب لابرار شخصيته ، فإن الملايين من أتباعه قد أعطوه ألقاباً كثيرة وعالية كتكريم له * وأثناء معركة مع اليهود أصيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى وجهه ، فجذبه أبو عبيدة : فلاحظ نزف الدم من وجهه الكريم ، فمص أبو عبيدة الدم ، وحينئذ قال الرسول ما معناه « من لس دمي لن تمسسه نار فى الآخرة أبدا » *

وقد كانت هناك محاولات للارتداد عن الدين ، وخاصة بعض محاولات التنصير ولكنها لم تنجح ، لأن الاسلام قد بنى على عقيدة راسخة وإيمان غير مزعزع ، ليكون الديانة الحقيقية الوحيدة ، ولذلك فإن الارتداد عنها هو حماقة واضحة *

وفى العالم الاسلامى الكبير بوجه عام ، يقبل النصرانى كمسيحى ،

والمسلمون بوجه عام يحترمون المسيحي المستقيم ، ولقد لاحظ المستكشف الهولندي « د. فان دير هولين » في السعودية ، أن الأمريكيين اذا ما أرادوا دخول البلاد من البداية كمسيحيين معترف بهم فليسوف يقابلون باحترام ، وسوف يسمح لهم بحرية العبادة على طريقتهم ، في أماكن محددة لاقامتهم ، ولكن الأمريكيين قد تجاهلوا عاملا جوهريا في اتصالهم بالعرب ، وهو أن العرب المؤمنين لا يثقون في المسيحي الا اذا تبين لهم فقط أنه مؤمن بإله واحد *

ولقد قال الشيخ شخبوط حاكم أبى ظبى للكاتب الانجليزى « رودريك اوين » : لابد أنك تفتقد كنيسةك اليوم . وانى آسف أنه لا توجد كنيسة لك فى أبى ظبى ، فرد « أوين » * ولكن ألا ترضى عن وجود كنيسة هنا ؟ * فرد الشيخ « أرضى بالطبع — فأنت تريد دينك كما تريد ديننا * ونحن مؤمنون ، ونعلم أنك ستكون أفضل كثيرا عندما تذهب للكنيسة » *

وكانت النتيجة الطيبة للبعثة الأمريكية فى مسقط ومطرح هى التغلب على سوء الفهم والتحامل ، وهى التى حدثت أولا عن طريق الطب ، ثم التعليم ، وكان مما يشجع أفراد البعثة على انجاز مهمتهم — ذلك العطف والرغبة فى المساعدة ، ثم صداقتهم للناس هناك ، وكذلك الأعمال العظيمة التى كان يؤمن بها كل فرد فى البعثة ، وهى التى استقبلها المسلمون بالشكر والتقدير ، وبالتالي فيمكننا القول ، بأن الحب والقبول كان لفرد البعثة نفسه وليس للمسيحية ، ذلك لأن الاسلام — ذلك الدين الذى حل محل عبادة الأوثان وكان خاتم الرسالات — لا يمكن الارتداد عنه أبدا ، فقد انتشرت الدعوة الاسلامية فى أنحاء الأرض ، واعتنقها الملايين *

وعندما أطلت علينا الحقبة الحديثة انتشر الدين الاسلامى ، وأصبح كما نراه اليوم * وقد انقسم العالم الاسلامى بعد ذلك الى شيعة وسنية ، ففى اليمن يعارض الناس أهل السنة ويمارسون مذهبنا آخر

« الزيدية » على طريقة الشيعة ، أما في عمان فالغالبية يتبعون مذهباً يختلف عن الشيعة والسنية ، وهو المعروف بالاباضية ، وإن الشخصية الاباضية هي الموضوع الذي تجدر مناقشته للوصول الى شخصية الدولة ، بصفة عامة ، ومساجد الاباضيين في عمان لا تزين من الداخل ، لأن ذلك يتعارض مع بساطة الاسلام .

وقد ظهرت المساكن التي تراها اليوم في تاريخ الفن المعماري أخيراً ، ولكنها لم تقبل في عمان ، وإذا ما عدنا الى العصور الأولى للإسلام فسنجد أن المساجد لم يكن لها مآذن ، وقد كان مؤذنو رسول الله يؤذنون للصلاة من مدخل المسجد .

وتعتبر الصلاة حجرة الزاوية في الاسلام ، إذ أنها عماد الدين ، فهي التي تعصم الانسان من الخطيئة ، ويقيم الاباضيون صلاة الجمعة في المدن الرئيسية « نزوى » و « صحار » أو حيث يختار جلالة السلطان ذلك .

والمسلم مطالب كما ذكر في القرآن الكريم بأن ينتظم في صلواته . .
 الفجر — الظهر — العصر — المغرب — العشاء . . وأن يؤديها في أوقاتها .
 وينظر الاباضيون الى الاسلام والايمان كشئ واحد غير منفصل ، ولا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر ، ومن يبتعد عن الاسلام يبتعد عن الايمان ولا يكون مؤمناً ، ولذلك فالايمن لا يكون كاملاً ما لم تتبعه أعمال تنفذه ، ويؤمنون كذلك بأن الانسان سيحاسب على أعماله .
 ويقولون إن الله يختار عباده ، كما يرى الاباضيون أنه من الحرام أن تتزوج امرأة من رجل ارتكب الزنى معها ، ويقولون ان من يرتكب الخطيئة الكبرى ربما يؤمن بوحداية الله ، ولكن ايمانه ناقص ، لأنه لا ينفذ التعاليم ، ويؤكدون أن النية لابد وأن تسبق العمل ، وأن عمل الانسان من صنع الله ، وأن العالم الى فناء . ولا بد أن يكون الناس مطيعين لله ، ومن يعص الله فهو غير مؤمن ، وأن من يرتكب خطيئة كبرى ،

مثل القتل والزنى ، يفقد حياته ، وأنه على الانسان ، كى يعرف الخير والشر ، أن يرتبط بمصدر المعرفة وهو القرآن الكريم والسنة المحمدية ، وعليه أن يفعل ما أمر الله به ، ويجتنب ما نهى الله عنه من المعاصى •

وفي رأيهم أن الفرق بين الشرق والغرب ليس فرقا جغرافيا أو جنسيا ، وانما هو بين أولئك الذين تأثروا بتعاليم الانجيل ، وبين الذين لم يتأثروا به • كما أن الانجيل قد وجد في الشرق ومن أجل الشرقيين ، ولم تصدر الترجمة العربية لبعض أقسام الانجيل الا بعد وفاة الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه •

وليس من شك في أن تعاليم عيسى عليه السلام قد حظيت بتقدير كبير في الشريعة الاسلامية ، بيد أن بعضا من مضامين الانجيل كانت حتى ذلك الوقت باهتة ، وتتضمن تفاصيل مشوهة ومنقطعة في بعض أجزائها ، وان بعضها مشكوك في صحته ، بل انه ربما حدث فيها بعض الخلط فيما بين مريم العذراء أم المسيح وبين مريم أخت هارون •

ولقد رأى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن المسيح واحد من الرسل السابقين ، وأنه استنكر موقف اليهود من الديانة التي نادى بها عيسى عليه السلام وعدم تصديق اليهود لها •

ويروى عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ما معناه ، أنه قال لعمر بن الخطاب مرة ، من أساء الى مسيحي فكأنما أساء الى ، وهذه الحقيقة ظلت ماثلة في أذهان المسلمين نحو المسيحيين ، ولعل أبرز الأدلة على تسامح المسلمين هي تلك القصة الفريدة لشهداء المسيحية في قرطبة بأسبانيا الذين استماتوا لكى يستشهدوا ، وان لم ينجحوا في ذلك دائما •

ان محاولة المسيحيين للتنصير في عمان خلال ألف العام الأولى للإسلام كانت نادرة وعقيمة ، وكان كاتالان ريموند هو أبرز الدعاة الى

المنصرانية الذين زاروا البلاد العربية في فترة القرون الوسطى ، ولم تجر بعده محاولات جديدة الا بعد مرور نحو خمسمائة عام •

وفي عام ١٨١١ م هبط « هنرى مارتين » مسقط بشعاره المتعصب « دعوني أحترق من أجل الله » ثم جاء بعده رجل انجليزى متخصص هو مارجور جنرال هيج من الجيش الانجليزى ، وقد تجول على ساحل الجزيرة العربية عام ١٨٨٦ م ووصل الى داخل اليمن ، وقد كتب عن عمان ، انها تنفصل عن بقية الجزيرة العربية ، حيث الصحراء الرملية الشاسعة ، وكذلك فى مجال اتصالها بالعالم ، وذكر أن عمان جزيرة تتمثل بالبحر من جانب واحد ، ثم بالصحراء من بقية الجوانب •

وقال هيج ان مناخ مسقط هو المسئول عن وفاة قائد البعثة الذى أتى من الهند ، اذ أنه مات بعد ٩٥ يوما قضاها فى عمان أثر ضربة شمس •

وقد استرعى مقال الجنرال هيج الذى نشر فى احدى المجلات انتباه طالب موهوب بجامعة كمبريدج ، هو ايان كيث فالكونر ، فكون أول بعثة للتنصير ، ولم يكن حظه الا مصير من سبقه ، فقد مات بالمalaria بعد اقامة عشرة أشهر فقط فى شبه الجزيرة العربية •

ولقد أثرت هذه التضحيات التى قام بها بعض الدعاة الى دين المنصرانية فى مناطق الجزيرة العربية فى نفس شابين أمريكيين هما صمويل رويمر ، وجيمس كائين ، فقاما باعداد بعثة تنصيرية •

وفى ١٨٩٧ مات « بيتر » شقيق « صمويل » بعد استكشافه للجبل الأخضر ، وفى عام ١٩١٩ وصل « د. شاروت توماس » (فى أول بعثة طبية لعمان) الى مطرح ، ومات عام ١٩٢٣ بضربة شمس ، وهو يقيم خطا تليفونيا بين مسقط ومطرح ، وقد أرسل السلطان قاربه البخارى لينقله الى مقابر المسيحيين فى مسقط ، وذلك قبل ٢٠ عاما من وصول طبيب آخر لعمان •

وفى عام ١٩٤٨ أعطى السلطان أرضا لبناء مستشفى ، تخليدا لذكرى شاروت ، وتمت إضافة مبنى آخر للعلاج والرعاية ، وقد تم علاج ١٤٠ مريضا بالجذام ، وكذلك أربعمئة مريض بأمراض مختلفة منذ عام ١٩٤٨ •

وقال توماس للكاتب : « ربما تعجب من سبب عودتى الى عمان مرة أخرى ، ولكن هناك قوى كثيرة دفعتنى لذلك •• منها حب والدى للناس وللبلاذ ، والخروج للبحث عن الماس ، وقد عشنا فى منزلين على الشاطئ ، استخدم والدى الطابق كعيادة حيث عالج أعدادا كبيرة من المرضى فى الصباح ، وأما العمليات فكان يجريها فى المساء ، وقد بذلت أمتى جهدا كبيرا لجعل الطابق الثانى أكثر راحة وجاذبية ، وقد كنا نعانى متاعب كثيرة من الحشرات ، ومن ارتفاع درجة الحرارة ، ولم يكن لدينا مراوح كهربائية أو ثلاجات ، وكنا نخرج للأشجار النخيل وسط الوادى الخسيق ، خلف بوابة المدينة ، للهروب من ضجيج المدينة ، ولنستمتع بالنظر الى شىء أخضر •

وكنا نرى المصابين بالجذام يتجولون ، وكنت أخاف منهم ، فقلت لأبى : لماذا لا ترعاهم ؟ ورد بعدم وجود امكانيات ، وقال لى : عندما تكبر قد تكون طبيبا ، عليك بملاجهم بالطريق الحديثة ، وحتى عام ١٩٥٥ كان « د • ويل » وزوجته هما الوحيدين اللذين يعرفان عمان من الداخل ، حيث تقابل « ويل » مع المشايخ وعالج بعضهم ، أما الآن فهناك المستشفيات الحديثة ، والأطباء المؤهلون اللذين يحبون الناس ، ويحبهم الناس ، واللذين يعرفون التقاليد واللغة المحلية ، وقد أسسوا فى الكويت كنيسة مسيحية •

وخلاصة القول ان الدين الاسلامى يعنى الكثير فى حياة المسلمين اليومية ، أكثر مما يعنيه الدين المسيحى فى حياة المسيحيين اليومية •

ويمكن لمسيحي الغرب أن يتعلموا من مسلم الشرق ، فالمسيحي ذو القلب الضعيف لابد أن يتأنى وهو يسير فى الوضاعة والمذلة ، فينظر

الاحترام المسلم لنفسه ، حيث الروح والكرامة ، والمساواة المطلقة
 للإنسان تجاه الله ، ويجب علينا أن نشهد لهؤلاء الرجال بلا خوف أو تردد
 أنهم هم المؤمنون * وقد كتب « جوزيف بيت » دارس اللغة العربية
 يقول : « هل كان المسيحيون على استعداد للاعتراف بالمسيح ، والاخلاص
 له بشدة على النحو الذى يخلص به أتباع محمد صلى الله عليه وسلم له ؟
 وهل كانوا على استعداد للسير كما سار المسلمون في طريق الاسلام
 الحنيف ؟ ان الحقيقة كلما كانت أقوى كان الانسان أشد حكمة
 وإيماناً ، ولهذا فللمسلم دور سليم يعرفه ، فاذا كان له قدرة على تغيير
 الشيء الباطل كان عليه أن يغيره ، واذا لم يكن له تأثير فليتركه ، وليس
 هذا بالدرجة الأفضل *

الفصل الثالث

صحار

الجبـال — مسافرو الصحراء — الطريق البرى —
أشجار النخيل فى الباطنة — صحار — موطن
بلاد السنندباد — صحار قديما والآن *

اكتمل فريقنا بعد وصول « د • كروز » عضو البعثة الطبية الفعال ،
وأود أن أتحدث عنه قليلا •

كان « د • كروز » ذا قيمة عظيمة فى رحلتى الاستكشافية الرائدة فى
بيحان عام ١٩٥٠ ، وكان أستاذا فى جامعة « جون هوبكنز » وجامعة
« ميرلاند » وبعض المدارس الطبية الأخرى •

وخلال الحرب العالمية الأولى ، كان جراحا فى الجيش على خطوط
المواجهة ، وذات مرة قال له الجنرال « بير شبح » أيها الشاب ، لا تدع
تنظيمات الجيش تجعلك أحمق •

وخلال الحرب العالمية الثانية كان رئيسا لقسم الطب الباطنى فى
مستشفى « والتر ريد » فى « واشنطن » وذات مرة أعطى القائد أمرا
لكل المرضى ، بأن ينهضوا من فراشهم عندما يدخل العنابر ، ولكن « كروز »
رفض ، وأصر على الرفض ، وقرر أن يبلغ القضاء العسكرى ، وقال له :
ان الميعاد ٨ صباحا اذا كان يناسبك ، أيها القائد فانه لا يناسبنى أنا
ولا المرضى •

وعند المساء دعانى السلطان أنا و « بيل » على الشاي ، ووافق
جلالته على طلبى ، بشأن اصطحاب « البروفسير هاينمان » الى دى ،

والشارقة ، لاكمال برنامجه الجيولوجي في صحار ، وعند وداع السلطان احسست بالحزن ، وأخذت بلا وعى آلة تصويره الخاصة ، لآخذ له عدة صورو فوتوغرافية ، وقد أرسل السلطان رسالة رقيقة لمكتب الجمارك في « أسود » على الطريق لدبي ، وكذلك الى شيخ بنى كعب ، ووالى البريمي ، وقد علمنا أن الشيخ صقر ، ومعه طالب بن سليمان ، قد ذهبنا قبلنا الى صحار لاعداد الترتيبات *

وفي ٨ يناير عام ١٩٥٨ قام « بيل » بتصوير رحيل القافلة من بوابة المدينة الرئيسية ، والبوابة تمثل رمزا للحياة في المدينة نفسها ، وقد فتحت الطريق من مسقط الى مطرح — محطتنا الأولى — بأمر من السلطان *

وفي مطرح نتقابل السفن البحرية مع سفن الصحراء ، حيث يقع حصن برتغالي حصين ، فوق قمة صخرية ، والأجزاء المنخفضة للأرض القريبة من البلدة بها منازل صخرية وأبراج ، وتعتبر مطرح هي المدينة الصغيرة الأخت لمسقط ، وبها جبال بركانية ، ولا تتعرض للرياح الشمالية الغربية التي تهب أحيانا على مسقط *

وتضم مطرح — وهي أكبر مدينة في عمان — المتحف الرئيسى للسلطنة ، ويتكون المجتمع فيها الى جانب السكان الأصليين من بعض الأقليات ، التي يسكن بعضها في أحياء مسورة داخل مطرح ، والخوجا من الزيدية في اليمين ، وهم تاريخيا فرع من الشيعة رغم أنهم مختلفون الآن الى حد كبير ، ولا يمكن تمييزهم ، وهم ينتمون الى العقيدة الاسلامية *

وهناك استراحة خارج سور المدينة على الطريق الرئيسى للقوافل ، وتشحن فيها مئات الجمال ، وتفرغ يوميا ، وتحمل التجارة من أعالي عمال ، وهنا توقفنا لالتقاط بعض الصور ، وشاهدنا قافلة جمال حاملة التمر من الداخل *

وفي مطرح توجد الجمال ذات المناسم الواحد ، ولا توجد أنواع أخرى ، ولا توجد جمال وسط آسيا هنا ، والراكب في عمان يجلس على ظهر الجمل فوق سرج صغير مغطى بجلد الابل ، ويختلف من حيث الشكل الى حد كبير لما هو عليه في الحجاز ، وسوريا ، حيث يجلس الراكب على سرج كبير ، يوضع على أعلى قمة الظهر ، وهنا تحسب ثروة الانسان بحسب ما يملكه من جمال ، والمالك هو من يجلس على الأرض ، ويرى آثار أقدام جماله تملأ الأفق ، وقديما كان المالك يترك جماله في المرعى لسنوات عديدة ، وعندما يريد جماله يذهب لكانها ، ويتعقب آثارها حتى يجدها ، وهذا بالطبع كان يأخذ وقتا كبيرا ، ويفتح الباب أمام اللصوص والمخبرين ، وهذه المناطق كان الجمل اذا شعر بالظما فعليه أن يجرى الى أقرب نقطة ماء ، وينتظر مرور بعض الجمال ليشرب معها ، وهذه عادة الصحراء .

وقال المستكشف الانجليزي « كروز » في مذكراته عام ١٨٦٧ « بينما كنت في انجلترا قرأت وسمعت أكثر من مرة عن (الجمل الوديع) * هل هو وديع ، وهل وديع تعني « أحقق » وفي مثل هذه الحالة وجدت أن الجمل هو أعظم مثال للوداعة ، وسألوا الجمل ، أيهما تفضل السفر لأعلى أم للأسفل ، فأجاب اذا كان حاملا شحنة فليأخذها الشيطان كلها » *

وفي كتاب « ب . سبيروك » مغامرة في الجزيرة يحكى قصة لجمل مات بعد أن جر نفسه لعدة أميال الى عين ماء ليشرب منها ، ويقسمم العرب على ذلك ، ولكن مات قبل أن يشرب لأن جنته ربما تنجس الماء ، ويقسمم من يأتى ليرتوى منها ، بينما ذكر « س . ب ميل » في رحلته لخليج فارس ، أن هناك تشابها غريبا بين شخصية العربى وبين جماله ، وبين هذه الأشياء ، التى ينشابهون فيها ، كرههم للظلم ، والزواج العصبى ، والسهولة التى يهدأون بها *

وهناك قصة لجمل قتل انسانا بعد أن هرب الرجل ببعض الأشياء ، وبدأ يتسلق آملا في الخروج من المأزق ، ولكن الجمل وصل اليه ورفع رقبته ، وجذبه من قدمه ، وبدأ يضربه ، ثم جثم عليه ، حتى تكوم وكان الجمل يأتى كل يوم ليرى الجثة وينظر الى ما تفرق منها •

ويشير بدو الجزيرة الى عمان أحيانا بأنها أم الابل « الجمال » لأن يومانية هي ملكة الابل ، وهذا المصطلح يشير الى فصيلة وحيدة من الجمال ، لها رأس ورقبة أفقية مع الأرض ، ويمكن لليومانية أن تقطع ٥٠ ميلا في الساعة وأحسن فصيلة في عمان توجد في الباطنة من ساحل الباطنة ، وهي مشهورة بصبرها وقوتها التي لا تضعف مع الوقت ، ونشتهر بأنها تقطع مائة ميل في المتوسط يوميا ، الأكثر من أسبوع ، وقد قلع أحدهم ٩٥ ميلا بين البريمي وأبو ظبي ، في أقل من اثنتى عشرة ساعة •

وتاريخ الجزيرة مليء بالقصص والحكايات ، التي تصف قدرة الجمل على التحمل والصبر ، ثم ان الرحلات الاستكشافية كانت فوق ظهور الجمال ، وهناك قول مأثور عند العرب ، وهو أن معظم النساء مثل الجمل المتهادى ، ويتفق العرب على أن الابل هي نعم وعطايا من الخالق للبشر ، والجمل أعظم كل هذه النعم ، من الخالق للجنس البشرى •

فكل جزء من الجمل سواء كان حيا أم ميتا يتم استخدامه ، فالشعر للجمال والخيام ، واللبن واللحم كطعام ، والجلد والعظام للوقود ، وعندما يذكر الجمل يتذكر التاريخ رحلات القوافل ، ولا زالت آثار الجمال تحكى عندهم •

ويقول « ويلفريد ثيسيجر » في وصف رحلته « منذ أيام مررنا ببعض الآثار لجمال ، ولم أكن متأكدا من ذلك لأن الريح غيرت معالمها •• والتفت

السلطان لرجل ذى لحية كان دليلنا وخبيرنا فى الآثار ، ثم أخذ الرجل يتابع ، وقال انها العوامر ، فقد أغار ستة رجال على جينة فى الساحل الجنوبى ، وسرقوا ستة جمال ، وجاءوا هنا من سهامه ، وارقوا فى معشن ، ومروا منذ عشرة أيام ، ويقل لك العماني ، خذ رجل قبيلة فى رحلة لمدة ثلاثة أيام ، ثم ارم دولارا فى الصحراء ، وبعد سنوات يستطيع هذا الرجل أن يهتدى للأثره ، ويعود لأخذه ، وتختلف طريقة شرب الجمال هنا عن طريقة شرب الجمال العسكرية التى تشرب يوميا ، ولا تستطيع أن تسير بدون ماء ، وجمال الصحراء اعتادت السفر الطويل الأيام كثيرة » •

ويقول « جوك سنيل » انه ركب جملا ، وسار به لمدة سبعة عشر يوما بلا شرب ، وكان يبذل شفته فقط ، وسنام الجمل هى جهاز قياس حالة الجمل من الداخل ، السنام السمين يدل على الطعام المناسب والملح المنتظم وعلى أن الأمور داخل جسم الجمل تسير على ما يرام •

وفى وادى النيل يظنون أن المرأة اذا أكلت لحم جمل قرب ميعاد ولادتها ، فان ذلك يعوق الولادة ، والبدو فقط هنا هم الذين يأكلون لحم الجمل ، وهناك قول مأثور « ما لا يمكننا أكله نعطيه للمرأة لأنها تأكل كل شىء » •

وقد عرف أخيرا أن ترويض الجمل لم يتم منذ فترة بعيدة •

وقد ذكر « البروفيسور دبليام ف • البرت » عام ١٩٤٠ م أنه لا يوجد دليل واضح على وجود الجمل الأليف فى جنوب غرب الجزيرة العربية •

ومن الحقيقى أن الحفريات التى وجدوها فى العراق يرجع تاريخها الى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ، ولكن أول ذكر للجمل العربى فى أى نص لم

يعرف من قبل ، وباختصار فان استثناس الجمل لم يتم قبل الربع الثالث من الألف سنة ، وحيث كان الجحش سيد هذا المجال *

ويجب أن نؤكد رغم ذلك أن الجمل كان معروفا قبل الألف سنة الثالثة ، ولكن أين تم استثناس وترويض الجمل العربى ؟ يظن « البرت » أن هذا قد تم في جنوب الجزيرة العربية ، ولكن الحفريات لم تدل على ذلك *

وحدد الباحث الألماني الشاب « دالتر » وسط الجزيرة العربية ، ولكن « فيليب » ذكر بأن نجد من طبيعة حجرية ، ولا يمكن أن تعيش فيها الجمال ، ومن الجنوب الشرقى للجزيرة العربية ينتشر الجمل المستأنس الى نجد ، وإلى الجنوب الغربى للجزيرة العربية حيث عرفت القوافل أهميته بسرعة ، وفي القرن العاشر قبل الميلاد قادت ملكة سبأ أول رحلة بالجمال ، سجلها التاريخ لزيارة الملك سايما في القدس *

وبفضل استخدام الجمال تحول الناس في الجزيرة العربية من جامعى ثمار الى تجار ، وقد نكون مصيبين اذا أرجعنا تاريخ الترويض بين عامى ١٦٠٠ — ١٢٠٠ ق م * ولكننا سافرنا بعد ثلاثة آلاف سنة بعد ذلك الحدث الى حيث تتقاطع الأودية الضيقة مع قنوات الرى ، والسدود الصخرية ، على ارتفاع ثلاثة أقدام ، وهو جزء من الأحراش المنتشرة ، ووجدنا هناك هذا السهل الساحلى المنحنى الذى يحمل اسم الباطنة ، ويسمى الأرض المنخفضة *

أما أنظمة الوادى فلها جذور تمتد الى ١٥ — ٢٥ ميلا وراء السهل في جبال الحجر العالية ، وتقع وراء سلاسل الحجر المحافظتان الظاهرة ،

(م ٣ — رحلة الى عمان)

وعمان ، وتقع الظاهرة في الغرب ، وتطل على الصحراء بكتبانها الرملية في
الربع الخالي •

وتعتبر عمان الأم هي المركز الحيوى الرئيسى لعمان ، وتقع فوق
سطح البحر ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ قدم ، تجاه المحيط الهندى ، ووراء الأحجار
الشرقية توجد محافظتا الشرقية ، وجعلان ، وترتبط الشرقية بعمان
الحديثة ، أما جعلان فتقع بين المحيط الهندى والركن الجنوبي الشرقى
من الشرقية •

والملاحح البارزة في عمان هي سلسلة جبال الحجر الغربى ، التى
تنتهى بالقرب من رأس الحد ، الجزء الذى يفصل خليج عمان عن المحيط
الهندى وتسمى البقعة القاحلة ، والجبال الوعرة من دبا الى رأس مسندم
المعروف باسم رؤوس الجبال ، ورغم ذلك فان المضائق الرئيسية الثمانية
التى تجرف مياه البحر لهذه الجبال تسمح بالاتصال الخارجى والتجارة
بين الباطنة والداخل ، وأكبر مضيق يضم حوالى مائة قرية وستمائة ألف
نخلة في وادى سمايل ، الذى يقسم السلسلة الى شرقية وغربية ،
والذى يقابل انحدار الجبل الأخضر الى البحر في السبب ، ويمثل شريان
التجارة بين مسقط والداخل ، والسهول الساحلية التى تحيط بمعظم
شبه الجزيرة العربية عارية لا نبات فيها •

وساحل الباطنة ليس به ميناء ، ويمتد بطول ١٢٥ ميلا ، وهو أحد
الاستثناءات الملحوظة ، ويضم نصف سكان عمان ، وسكان الباطنة هنا
يولدون ويموتون في هذه الحدود ، حدود أشجار النخيل ذات الثمار ،
وأغلبية الـ ٢٠٠ قبيلة المعترف بها تسكن الباطنة ، وتعتبر الحواسنة
ويال سعدهما أكبر القبائل ، وتمتد الباطنة في نمط متكرر ، ميلا بعد ميل ،
وهي تبدو بلا نهاية ، وأرضها خضراء خصبة ، يحجبها غطاء من الرمال

الجافة ، وهناك شاطئ رملي أبيض متواز مع أشجار النخيل ، يؤدي هو الآخر للداخل ، حيث السهل المسمى بشجر السنط الممتد الى الجبال السوداء في الخلف ، والتربة الرملية الحجرية متآكلة الجوانب •

وقد عوضت الآبار عن نقص ماء العيون والمجارى الدائمة ، تلك الآبار الكثيرة ، وما يلفت النظر أنه على الرغم من أن هذه الآبار موجودة في الصخور وتهب عليها مياه البحر فانها تخزن المياه داخلها ، ويتم سحب الماء منها بالوسائل البدائية ، وهناك حبل ذو طرفين في أحد أطرافه دلو من الجلد ، والطرف الآخر يجره ثور ، وهكذا يتم نزح المياه ، ولا تستخدم الجمال في رفع المياه هنا ، وهناك أشجار كثيرة في كل مكان على الساحل ، أما الأخطار المحدقة بتلك الأشجار فأهمها الرياح التي تهب ، فتأخذ من الثمار بعضها ، تسقطه كما لو كان ضريبة المرور ، وهناك الآفات التي تتلف الثمار ، ولكن هناك دائما أشجار جديدة تحل محل المريضة التي اجتثت ، ويرتبط الفلاح بهذا النخيل ارتباطا وثيقا ، فهو يسعد لازدهاره ، وينتدهور لتدهوره ، وهناك المنازل المتشابهة المبنية من الطين والحجر •

وتعيش كل أسرة في منزل من ٣ ، ٤ غرف ، وتستخدم أشجار النخيل كجدار للمنزل ، وتعتبر حرفة قطع الأشجار تجارة ماهرة بالآلات الحديثة ، ومن المعتاد أن العامل يطلب بيضا ولحما ، بالإضافة الى مرتبه كى يحافظ على قوته وصحته من أجل العمل ، ويغطي المنزل أو الكوخ بسعف النخيل ، وتباع أعشاب الحداثي في الأسواق كعلف للابل ، والكروم من الفاكهة العريقة في عمان ، وهناك الموز ، والبطيخ ، والمانجو ، وشجر الرمان ، والتين ، والزيتون •

ومنذ فجر التاريخ يوجد في عمان التلفيح الصناعي لأشجار النخيل ، ويظهر ذلك أيضا عند وصف « هيرودوت » لبابل •

وتتقارن النخلة بالإنسان ، اذا قطعت الرأس تموت ، واذا ماتت واحدة من النخيل لا تحل محلها أخرى ، وتعطى بليف مثل شعر الانسان والشجر الذى ينمو فى الأماكن المرتفعة ويخلو من المرض يقال « ان هذه النخلة قدمها فى الجنة ورأسها فى النار » وفى وقت الحرب يعتبر من الأهمية أن تقطع أشجار النخيل بعيدا عن أعين عدوك ، لأن وجودها علامة الرخاء ورمز التجمعات •

ويخبرنا « ريفين جون فان اس » عن رحلته الخاصة بقوله « منذ سنوات مضت وصل الى المعسكر خطاب ، ولم يكن هناك مصباح لقراءته ولكن النساء قامت بعمل مصابيح من ثمر النخيل على شكل كأس وضعوا فيه السمن » •

وأشجار النخيل وقت النهار حيث تشتد الحرارة يمكن أن تكون مكانا جميلا للاسترخاء واستسقاء الجمال ، وحياة الواحات أكثر راحة من حياة الصحراء ، ويشار الى قبائل الواحات بأنهم « أهل النخيل » وكقاعدة عامة فان العماني يأكل التمر ، الذى يقولون عنه ، انه عصب الحياة أو حفيد الأرض ، ويقال ان هناك أكثر من مائة نوع من البلح ويؤكد العمانيون أن الزوجة الصالحة هى التى تضع أمام زوجها يوميا انساء من التمر • ويصنف العرب التمر الى حار ، ورطب حسب مذاقه ، وتنتج عمان أنواعا كثيرة من التمر ، وتمر الباطنة ينضج قبل أى تمر آخر ، وهناك أنواع فى الباطنة تسمى أم صلاح وتعرفها أسواق الجزيرة جيدا ، وعندما يصل التمر الى درجة الاحمرار يباع بأعلى سعر ، وهناك أنواع لا حصر لها من التمر ، ولها أكثر من ٥٠٠ اسم ، وهنا ينظرون الى النخلة بأنها « ملكة الشجر » والجمال ذو السنم والنخيل هما فى الواقع رمز الجزيرة العربية ، وفى الخارج من سهل الباطنة قطعنا حوالى نصف الطريق الى صحار ، وقضينا أول ليلة فى الخلاء ، وكان المرشدون يتناوبون

الحراسة ببنادقهم ، ثم قمنا في السابعة ، وكان اليوم بارداً ، وغير مناسب
لالتقاط الصور ، وهطلت الأمطار •

ومن السويق • حيث الحصن الثالث على ساحل الباطنة الى الخابورة
كان المر ضيقا ، وكنا نسير في أراضي النخيل • والتقاليد هنا تقول
« عندما يشرب الكلب من وعاء فيجب غسله سبع مرات » ، على أن تكون
احداها بالثراب ، وبصفة عامة فان الكلاب محترمة في العالم الاسلامي ،
على أن من الأعمال الطيبة أن يطعم الانسان حيوانا ، ويقال ان الكلب
الأمين أفضل من الرجل النافر للجميل •

وبعد أن رحلنا من القرى الساحلية في صحم عبرت القافلة ثلاثة
أودية ، في السبعة عشر ميلا الأخيرة ، وفي الثالثة بعد الظهر وصلنا الى
مقصودنا ، والمكان الجديد هو صحار •• وهي المدينة الرئيسية على
ساحل الباطنة •

وعندما ظهرت صحار تاريخيا عام ٨ هجرية ٦٢٩ م كانت قبيلة
الأزد تحكم عمان ، وعندما وصل مبعوث الرسول محمد عليه الصلاة
والسلام الى الأميرين عبد وجيفر نجلى الجندى الذين حكموا عمان في
السنة الأولى من بعثة الرسول حيث تم استدعاء شيوخ عمان في نزوى ،
ثم تم الاتفاق حول ضريبة الزكاة التي أمر بها الرسول محمد صلى الله
عليه وسلم ، وعم الاسلام صحار ، بعد ذلك ، وبلا شك ان الاقتناع
بالعقيدة لعب دورا هاما في ذلك الوقت ، لأن الصلابة والاصرار والتضحية
من أجل الاسلام جاءت بدرجات متتالية ، وعندما توفي الرسول ذكر
الرواة بأن الرسول قد كفن في ثلاثة أثواب من صحار ، ودخل جيفر
الاسلام ، وهرب للجبال ، ثم أرسل أبو بكر ثلاثة قواد الى البحرين
والبريمي ، ويقال ان صحار هي موطن السندباد البحري في الليالي العربية

المشهورة ، وربما تكون الباطنة هي الأرض التي تسكنها الوحوش والشعابين ، وليس هناك دليل على ذلك رغم هذا الملاح المسمى بالسندباد كان موجودا بالفعل ، لأنه شخصية حقيقية ، واسم السندباد من أصل إيراني ، وربما كان اسمه سندبام ، وهو مغامر فارسي ، وملاح معروف جيدا في الأدب العربي ، وقصة « سيكولويس » في « الأوديسا » شبيهة في معظم أجزائها بقصة السندباد ، ووادي العقيق *

وتعتبر قصص ألف ليلة وليلة عن نشاط وازدهار التجارة العربية الدولية عن الرومانسية ، وعن الأخطار والمغامرات ، والاشارة الى صحار كموطن للسندباد ربما تشير الى أهميتها كميناء بحري ، يأتيه التجار والبحارة بلا خوف *

ومع منتصف القرن العاشر كانت صحار أهم مدينة في عمان ، وأجمل مدينة في الخليج ، وصحار أغنى وأكثر سكانا من كل مدن عمان ، ومن المستحيل أن تجد على الخليج مدينة اسلامية أجمل وأعظم من صحار ، التي كانت مركزا للتجارة * وقد كتب المسعودي المتوفى عام ٩٥٦ هـ والذي وصف بأنه « هيرودوت » العرب كتابه « مروج الذهب » وقد قال فيه : انه سافر مرات عديدة ، من صحار ، المدينة الرئيسية ، الى مدغشقر *

وقد كتب المقدسي « ان أعظم ميناءين في العالم هما عدن وصحار * صحار عاصمة عمان ، حيث الثروة والأسواق الكبيرة الممتازة ، وتحفل صحار بالأحداث التاريخية الهامة ، ففي عام ١٠٤١ حاصرتها واحتلتها القوات البحرية الفارسية ، كمدخل لغزو عمان ، وفي منتصف القرن الثاني عشر فرض

ملك عدن سيطرته على الخليج ، وحول تجارة صحار مع الشرق الأقصى الى عدن ، وفي عام ١٢٧٦ انهار عليها جيش المغول من شيراز ، وكانت أثناءها قوية شديدة ذات أسواق كبيرة للجياد ، وذلك عندما ذهب اليها « ماركو بولو » ولكن مع بداية القرن الثانى تغيرت ، ووصفها أبو الفداء السورى فى أحد مؤلفاته فقال ، لقد رأيت المدينة فى خراب *

وفى ١٦ سبتمبر عام ١٥٠٧ وصل أسطول مغولى الى صحار لأول مرة ، بعد الاسكندر ، وهى المرة الأولى التى تصل فيها السفن الحربية الى هذه البقعة *

ومدينة صحار مدينة جميلة ، عدد سكانها كبير جدا ، ومنازلها قوية ، وسور المدينة على ارتفاع كبير ، ويحتاج الحصن الذى فيها الى أكثر من ١٧٠٠ رجل للدفاع عنه ، ويسمى الناس داخل المدينة بالبدو ، وأغلبية الخيالة رماة ، والبعض يحملون الرمح والصولجان التركى ، بينما يرتدى كل المشاة تقريبا القبعات والرماح والدروع *

وتقع صحار اليوم بين ساحل البحر الرملى وبين الامتداد الكبير للأحراش النخيل ، دون أية ملامح طوبوغرافية أخرى ، ويعيش معظم السكان فى أكواخ * كل كوخ منفصل عن الآخر يحيط به سور طينى وأعشاب نخيل ، وهنالك ميدان صغير ، تمثل ملامحه الفن المعمارى المحلى الذى لا تلاحظه فى بقية عمان ، وهناك قلعة يمكن السيطرة منها على منطقة صحار ، ولا تزال مشغولة ومستخدمة حتى الآن ، وقد بنى هذا الحصن أيام الفرس ، ثم أدخل البرتغاليون والعرب تعديلات وازافات تشمل الرسوم والآيات القرآنية المحفورة فى الخشب فوق البوابة مثل « العون من عند الله » و « أنا فتحنا لك فتحا مبينا » *

ووصف الميناء الرائع في صحار في دائرة المعارف الاسلامية محير ،
 ليس لعدم وجوده ، ولكن لوجود دلائل على كينونته في الماضي ، وربما
 كان البوغاز الصغير في الحدود الشمالية للمدينة في الماضي متصلا
 بالبحر ، ولكنه صغير جدا ووسائل حمايته غير متوافرة ، على عكس
 ما وصف في دائرة المعارف ، وهذا هو خطأ اعتاده بعض الكتاب الذين
 يعتمدون على مصادر مكتوبة ، تضم أوصافا رومانتيكية وعظيمة للجغرافيين
 والمؤرخين العرب ، الذين ينبغي على القارئ الغربى الاعتماد عليهم .

الفصل الرابع

مقابر الملينة — محمد عليه السلام والطب — الكى علاج

لحل الأمراض — الصين — أمراض العيون —

الجراحة — حمائم بخار الزئبق — أمراض الأطفال •

بعد الاستقرار فى مكتب الجمارك فى صحار ، ذلك المكان الذى جعله السلطان مقرا لاقامتنا ، قمنا بزيارة كل الأماكن المحيطة به ، والتي كنت قد عرفتتها خلال رحلتى القصيرة الأولى ، فى نوفمبر عام ١٩٥٧ ، وكانت هذه الأماكن التى تشبه المقابر فى وادى الملينة تمتد على كلا الجانبين لمسافة أربعة أميال ونصف ، وهناك مقابر على هيئة فنجان ، أو طربوش مقلوب ، وهناك سور ضعيف يبدو خربا ، وله أبراج للمراقبة ، ووجدنا عين ماء ، تتبعناها حتى وصلنا الى أبنية ، وأبراج مائية جميلة ، على أشكال هندسية ، كل برج له بئر فى المنتصف ، وربما كان الفرس هم الذين شيّدوا هذه الأبراج ، بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر ، لتحديد منسوب المياه ، والماء هنا يتدفق من أعلى خلال قناة ، تمر تحت أرض الوادى ، فى أنبوبة ضخمة ، ليرتفع ، ويقابل البرج الثانى ، ثم خلال عين صغيرة الى المدينة البعيدة فى فلج السوق •

وعلى امتداد النهر وجدنا نفقا ، قد شق فى الصخر الصلد ، به انحدارات مائية ، وهذه الأنفاق متصلة بالسطح ، خلال فتحات رأسية للتهوية ، وهذه الأنفاق تجنب ضياع المياه ، نتيجة للامتصاص والتبخر •

من الذى صمم هذا النظام العبقري الذى يعمل بالجاذبية الأرضية ؟ انه مهما كانت جنسيته ، فارسيا أم عربيا ، فلا بد أنه احتاج لعدد كبير

من العمال ، بالإضافة الى قدرته على تنفيذ المشروعات الجماعية الضخمة في المجتمع ، كى يقوم بحفر مثل هذه القنوات في مثل هذا الجفاف ، وفي فارس هناك ما يزيد على المائة ألف ميل من القنوات ، يصل بعضها لعمق ألف قدم ، مثل قنوات جانابار ، وأطول قناة في فارس الآن يبلغ طولها حوالى خمسين ميلا ، ومحاولة الكشف عن قنوات مياه الأنفاق الصناعية في فارس ليس بالأمر الصعب ، وتعتبر هذه القنوات وكأنها سمة من سمات عمان في الماضي *

وفي عام ١٨٣٥ م ذكر « ويلستد » أن كل المسدن داخل عمان تدين بخصوبتها الى الحالة الطيبة التى أفاد السكان منها أنفسهم بأسلوب توصيل الماء .. وهو أسلوب أبعد مما نتصور * أسلوب غريب نشأ من العمل والمهارة ، وهو أكثر قربا للأساليب الصينية منه الى العربية * وهناك قنوات مشابهة تحت الأرض على امتداد الطريق ، من شمال شرق الصين الى اقليم الصحراء في الغرب ، وقد وصف « هيردوت » فارس أثناء الحروب فيها ، وذكر الاجراءات البسيطة التى يقوم بها حاملو الآبار في البلدة أو المدينة ، وكيفية تدميرها وقت اللزوم * وربما يكون نظام الماء العمانى قد تطوّر في فارس ، ثم نقل الى الجزيرة العربية *

وفي اليوم التالى تركنا مكاننا ، وقضينا ساعتين من السفر الشاق ، حتى وصلنا الى جبل كبير ذى قمة مدببة ، به أطلال قديمة تسمى حورة البرجة ، وقد سمعت هذا الاسم أول مرة على لسان والد جلالة السلطان في بومباي *

ثم توقفنا في نصف الطريق ، أعلى الوادى ، لتصوير مخيمات البدو ، وهناك وبمجرد أن رأونا اصطحبوا الدكتور « كروز » حيث كان هناك زجل مريض ، يرقد على الأرض ، وهنا منطقة مجهولة وموحشة من

العالم ، حيث يسقط البدو مرضى فوق الرمال ، وكان الدكتور « كروز »
وكأنه هدية لهم من السماء •

وبعد غداء سريع في ركن من الجبل بدأنا التسلق على الأقدام ، ومن
القمة رأينا خلفية رائعة منتشرة في كل الجوانب ، عبارة عن مياه البحر
الزرقاء الى الشرق « خليج عمان ، وجبال عمان المرتفعة في الغرب » .
وأذكر أنه قبل ذلك بثلاثة أشهر عندما قمت بأول محاولة لتحديد موقع
هذه الأطلال كان دليلي أو مرشدي شيخ لم يشاهد هذا المكان في حياته ،
ولا يعرف أحدا قد رآها قبل ذلك ، وبالطبع عرفت ذلك بعد ساعات
سرها ، وتم تحديد هذه الأطلال التي كان من الصعب التعرف عليها ،
وقمت بالنقاط بعض الصور لها في الحال • وعلى ارتفاع ثلاثة أقدام
شاهدنا أسوارا من الحجر الجيري ، تحيط بها أبراج هندسية ، وهناك قمة
غير مستوية ، وهناك على السطح شكل صخري جميل يمثل الفنجان
المقلوب ، ربما يعود الى العصر البرونزي الوسيط ، ورأينا أنظمة للمصرف
وسدودا وقنوات على الممرات ، وخزان مربع الشكل •

وبعد أن قمنا بجمع العينات الصخرية ، رأينا أنه لا جدوى من البحث
هنا ، وأن تلك الأطلال والخرائب ليست لها أى معالم ذات قيمة جديدة •

ويقال ان هذا المكان كان ينتمى لفارس القديمة ، ولكن الأطلال
عربية ، وقد قال الشيخ سرحان بن سعيد ، ان عمرو بن العاص أتى هنا
من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لنشر الاسلام ، وطالب
الولاية بالامتثال ، وقال للتجار « اتركوا الضلال ، وخافوا الله
ورسوله » •

وعند العودة للمقر قال الشيخ صقر ، ان واليا جديدا سوف يحضر ،
وهو الشيخ على بن حمد ، من قبيلة ملوى ، وقد خدم هذا الشيخ في

مناطق عديدة في عمان ، وقد تكرم بالسماح لى بالحصول على ثلاثين عاملا ، وانتفنا على مرتباتهم ، وجاءوا في الصباح ، وتم تقسيمهم الى فريقين ، لكل منهما رئيس ، وكان من المتفق عليه أن يأخذ كل من « روى وساندى » ثمانية عشر من العمال ، ليبعدوا العمل في تل صحار ، الذى لم يكن يبعد كثيرا عن المقر •

وكان التراكم في صحار يمتد ليل على الساحل ، ويرتفع في الحال وراء رمال الشاطيء ، ولكنه لا يتسع لسوى ربع ميل ، والتل الرئيسى ذو أبنية كبيرة ، بأسوار متدرجة ، تحيط بأكواخ صنعت من النخيل ، وهناك ضوء في الجزء الأسفل من التل ، وآخر يفصل التل الرئيسى عن البقية ، يحيط به خندق ، والجزء الشمالى ليس به سوى بعض المقابر حديثة العهد ، عدا الخط الضيق للأكواخ على امتداد الشاطيء ، وهناك عدة مداخل تنفصل عن البحر بسواتر رملية ، وقد كانت في الماضى موانئ للقوارب القديمة ، وكان المر الى البحر مفتوحا في العصور القديمة • ثم أخذت أنا وبيل والدكتور كروز الجزء الآخر من العمال ، وبحثنا في وادى المدينة حيث عصرنا على عظام وجماجم ، وتأكدنا من وجود مقابر هنا •

وقد كانت هذه المدينة مزدهرة ابان الحكم الفارسى ، قبل دخول الاسلام ، ودمرها الله عندما رفض الفرس الدين الاسلامى ، وبالتأكيد ان تلك المقابر اسلامية ، حيث ان حجارتها غير مستوية ، وليس بالجزيرة ما يشابهها ، ولم أر بالجزيرة العربية مكانا مشابها لها ، ولا بد أن عمان قديما قد شهدت اناسا عظاما ، شيدوا القاريخ بمجهودات هائلة •

ثم قمت أنا وروى بالبحث في المنطقة الشمالية خلال حصن فارسى قديم في طرف المدينة ، وبعد أن تجولنا لساعات ، اصططبت الشيخ شاكى ، وأخذت منه تصريحاً بالحفر ، ثم أمر ساندى رجاله بالعمل قرب سور

الحصن ، وفي ركن من مبنى كبير على أطراف الخندق المغطى بالرمال ، وعلى عمق خمس عشرة قدما ، ثم توقف العمل ، وانهار جدار الخندق ، وظهرت الشقوق حاملة اليها الحفريات •

ولعل أعظم مزايا الحفر الجيولوجى هو أنه يتيح للباحث التعمق أكثر فى شخصية الناس والامسام بالمعادن والتقاليد ، وقد أفادنا عمل دكتور كروز بالطبع فى التعرف على الطب المحلى فى عمان •

وقد بين « ايلول شيلر » من قبل ، عندما تحدث عن النظام الطبى فى الشرق الأوسط ، أن الاصابات والأمراض كلها حالات عضوية • وأنهم لا يمرضون فقط ، ولكنهم يسقطون ضحايا فى وقت قياسي ، بسبب الأعمال الشاقة التى تسبب المرض ، أما عن الطب فى الدين الاسلامى ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه اذا سمعت عن الطاعون فى مكان فلا تذهب اليه •

ويقول الدكتور بول هاريسون : ان العرب لديهم قابلية شديدة للعلاج ، والقرآن الكريم يحثهم على ذلك ، ورغم ذلك فان علم التشريح لا يجد قبولا عند العرب ، وان كانت الأمور قد تغيرت كثيرا الآن •

فقد كان يقال قديما ، ان الروح لا تصعد فى الحال عند الوفاة ولكن بعد فترة ، ومن هنا كانت المعارضة الشديدة للتشريح ، وأنه عمل قاس وغير انسانى ، وأنه لابد من احترام الميت حتى ولو كان فى بطنه لؤلؤة •

ويبدل الطب المحلى فى الجزيرة العربية على عدم المعرفة ، كان علاج الجروح هو الكى بالنار ، فمكواة صغيرة توضع على الجزء المصاب كان يتم وصفها للملاريا ، والحالات السيئة لمرض السل ، حيث يضعون قماشاً فى فم المريض ، وجمرة نار على الجزء المصاب ، وعندما يفشل

الكي تكتب كلمات من القرآن الكريم لكي ييلعها المصاب ، ويتم تحصين المريض بحجاب قرآني ، وكان هذا الحجاب يستعمل كعلاج للكثير من الأشياء ، ولكي يحفظها من الحسد بالعين الشريرة ، فقد يوضع للجمال ، وقوارب الصيد وكل شيء ، فهناك عين الشيطان ، وعين الحسود ، وعين الحقود ، لذلك فقد كانوا يجعلون الأطفال يرتدون الملابس البالية عند الخروج أمام الناس خوفا من الحسد ، والأطفال لهم قيمة عظيمة لدى العمانيين ، والولد في الصغر يرتدى ملابس فتاة حتى لا يعرف •

ويقال هنا ان الكوليرا تأتي نتيجة للاستحمام أثناء اكتمال القمر ، وأن الكوليرا تسببها الريح الصفراء ، أما الملايا فيعتقد أن سببها هو القمر غير الناضج ، أو الشرب من الماء الملوث ، والجدرى أحد الأمراض الخفية في مناطق العمران من الجزيرة العربية ، حيث تسببه الأوبئة ، ويتم عزل المريض ليحيا أو يموت ، ويتم تقديم الطعام للمريض بحذر ، وقد أوصد أحدهم بيته على أحد أولاده وتحدى أن يأتي اليه أحد ، وكان يرفض تلقيح ابنه ضد الجدرى وكان يقول ، ان الله وحده هو القادر على شفائه •

وفي عدن القديمة عرفت الحصبة ، ولعلاجها هناك كانوا يغطون جسم المريض بالكحل ، ويتم عزله في حجرة مغلقة لمدة أسبوعين ، ويتم كسر البيض على الباب حتى لا تدخل الشياطين •

ورغم حث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على النظافة وأنها من الايمان ، فانهم لا يعملون بهذه الحكمة • وللاحق أقول ، ان الطب هنا أهم من التعليم ، وقد كان الدكتور « ويل » يعالج في مطرح الآلاف من المصابين بالعمى في عمان ، وكان السبب الرئيسي لهذا هو الرمدم الحبيبي ، ثم مرض الجدرى ، ولكن لا شيء أجمل من رؤية الفرع عند الشفاء ، وقول العربي « الحمد لله » •

ومنذ اليوم الأول في صحار بدأ « جاما » العمل مع الدكتور « كروز » في اجراء العمليات ، وتكرم الدكتور « كروز » باتاحة الفرصة لى لاعداد تقاريرى •

وقد ذكر الدكتور كروز أنه لا توجد أية علاقة للطب الحديث في مسقط ومطرح ، وأن العلاج هنا علاج شعبي ، وأن أمراض الأطفال تنتشر بكثرة هنا ، وفي عمان تلاحظ أمراض العيون بصفة خاصة ، أما الأبحاث على ضغط الدم فقد وجدناه عاديا ، حيث يندر استخدام الملح في عمان ، وهو يستخدم بصورة أقل كثيرا من العرب ، وقلة الملح تجعل ضغط الدم عاديا في هذه المناطق •

وقد شاهدنا الكثير من الاصابات الحديثة ، وان كانت الاصابات قد قلت نتيجة للرعاية الطبية •

والمالريا تنتشر في الواحات ، ولدى الناس هناك ، للحقيقة ، رغبة في المعاونة والعلاج ، ونظام الدفن هنا هو الغسيل ، ولف الجثة في أثواب غير محاكة ، ثم الدفن ، ويستمر العزاء لمدة ثلاثة أيام ، وتمنع النسوة من الصراخ ، والبكاء ، والذهاب للمدفن •

ونسبة الاصابة بمرض الزهري كبيرة ، ويتم علاج هذا المرض بواسطة حمامات الزئبق ، وان كان هذا العلاج يعجل بالوفاة ، لوجود كميات من السموم فيه •

هذه هي الحالة الطبية هنا ، ولا بد من الاهتمام بها الى أقصى درجة ، حتى تذهب الأمراض الى غير رجعة •

الفصل الخامس

أرادة الله — القضاء والقدر — العبودية —
 الصيد — كميات السردين الهائلة — الدين
 هو القانون — التبييد — محمد صلى الله
 عليه وسلم والعبودية — تجارة الرقيق —
 صحار اليوم

ذات مساء أخذت أنا وبيل الفريق ، وقمنا باستكشاف على الساحل ،
 في اتجاه الشميلية ، أو طرف عمان ، وهي شبه جزيرة على ارتفاع كبير ،
 تتكون من صخور مدبية وتعرف برأس مسندم ، في صخور سوداء غير
 مستوية ، تفصل المياه الباردة العميقة لخليج عمان عن الخليج ، وفي
 الوقت الحاضر تعد هذه البلدة الجبلية « رؤوس الجبال » موطن الشحوح
 الذين لا ينتمون الى أصل عربى « بل الى الفرس مثلاً أو أواسط آسيا »
 ويبلغ عدد هذه القبائل حوالى الأربعة آلاف نسمة ، تعيش فى أكواخ ،
 أو فى مساكن نحتت فى الصخر ، وتعيش على الصدف أو صنع الأكواخ ،
 وحالتها غير مرضية •

ولم نكتشف مدناً قديمة ، ولكننا وجدنا بقايا قلاع رملية ، لا حصر
 لها ، تحتوى على مجموعات من أبو جلمبو ، وبينما كنت أمسك
 « أبو جلمبو » واحداً من رجله جرحنى ، وقال لى السلطان معقبا على
 ذلك ، اننى نلت عقابى من هذا الحيوان المسكين ، الذى هو صديق
 لجماعات الصيد ، المنتمية لجنسيات مختلفة من عرب ، وزنوج ، وغيرهم •

وفى شاطئ « الباطنة » تصنع شباك الصيد ، ويصل طول الشبكة

الواحدة الى حوالى أربعمئة ياردة طولاً ، ولها قطاع فى المنتصف يبلغ اثنتى عشر قدماً ، ويتم غزل الشباك غزلاً يدوياً ، هذا غير فخاخ الأسماك التى تصنع من خشب النخيل ، بقطر يبلغ أربعة أقدام ، أو أقل قليلاً ، والمياه هنا مليئة بالدرافيل والسلاحف البحرية « بركودا — حصان البحر — كلاب البحر — والسردين » . ويتم تصدير كميات هائلة من كلاب البحر للصين ، ومع ذلك فمعظم حصيلة صيد السردين — من السردين الصغير « سردينلا » ، والذي يجفف بعضه ، ويستخدم كغذاء للجمال ، ويتم خلطه مع بعض المواد ، كى يستخدم كسماد ، ويعتبر هذا السردين هو المحصول الأول على امتداد المناطق الرملية غير الباطنة ، وسواحل وسط ظفار .

ويستخدم الصيادون الهورى ، وهو قارب صغير ، من خشب معين ، يتم استيراده من ملبار ، على الساحل الهندى . وهناك نوع من شباك الصيد يلقى من مؤخرة القارب ، ويمتد على مسافة خمسين ميلاً ، وهو مثال رائع لكيفية التكيف مع البيئة ، فى نطاق الامكانيات المتاحة ، من أجل متطلبات الحياة ، وتصدر عمان حوالى أربعمئة ألف طن سنوياً من الأسماك ، من اجمالى حصيلة الصيد فى العام ، والبالغ مائة ألف طن .

وفى الصباح أرسل لنا الشيخ صقر هدية ، عبارة عن كمية من البرتقال ، قبل أن يرحل فى الصباح التالى ، ليقدم تقريره للسلطان ، ولابد هنا أن نذكر أن العامل الانسانى هو أهم عامل فى التعامل مع العرب .

ثم تلقيت بعد يومين باللاسلكى رسالة من السلطان ، هذا نصها :

(م ٤ — رحلة الى عمان)

« شكرا لرسالتك •• مسرور لنجاحك وتقدمك •• وأتمنى لك رحلة ناجحة باذن الله » •

ثم توجهت الى الوالى ، كى يصرح لنا بتصوير القصر فى الصباح ، كذلك الأطفال فى المدرسة ، فوافق ، ثم أخبرنى أن هناك أمرا هاما يريدنى لمناقشته •

ويبدو أن الشيوخ المحليين قد اشتكوا من طول مدة تشغيلي للعمال ، وأنه لابد من تغييرهم أسبوعيا ، حتى يستفيد الجميع ، فكان ردى أن العمال أصبحوا الآن ذوى خبرة ، وأنهم يتقدمون فى عملهم ، ولا يمكن أن يقفوا عند ذلك الحد •

وفى الصباح التالى اتجه « بيل » الى مناطق الصرف ، وراء صحار ، حيث أحراش كثيفة من الشجيرات ، التى يبدو بعضها غريبا ، حيث ان الأشجار التى تغطى هذه المناطق من السهل ، والتى تملأ الأرض بمسافة ثمانية أقدام تبدو وكأنها مقصوصة من الأجزاء السفلى ، حيث تأكل الجمال أوراق هذه الأشجار ، التى تصل اليها أعناقها •

ثم عاد « بيل » قبيل الظهر كى يصور عمل الوالى داخل الحصن القديم ، حيث يجلس بجوار القاضى الشرعى ، وينصت باهتمام الى ما يعرض من قضايا •

والاسلام هو أصل القانون المعمول به فى عمان ، وهو الحكم الأول مع أحد المذاهب الاسلامية « مذهب الامام أبى حنيفة » لأن علم القانون هو معرفة الحقوق والواجبات ، والدين هو القانون ، والقانون هو الدين فهما يجريان فى كتلة غير منفصلة والأساس الحقيقى للشرع هو القرآن ، والعادة من خلال الأنظمة الشرعية للجزيرة العربية تعتبر ظاهرة ،

تستحق الدراسة ، فالقانون هو القانون السماوى ، حيث ان الاسلام دين متكامل يعالج كل أمور الحياة ، وكل أوجه العلاقات الانسانية •

ووفقا لمطالبات المجتمع العربى ، فقد حدد الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، القانون العرفى الذى يهدف الى تقديم المذنبين للعدالة وحماية الضعيف ، والحفاظ على حقوقه الشرعية ، وبالاتماد على ممارسة الرسول عليه السلام الشريعة فى المدينة المنورة تصح الرؤية •

وقد جاء فى سفر التكوين « ان من يسفك دم انسان سيأتى من يفعل به ذلك » (من قتل يقتل ولو بعد حين) وفى الحديث الشريف « العين بالعين ، والسن بالسن ، والبادى أظلم » ، فى قانون التوراة المطلق « الموت للموت ، والدم بالدم ، والانتقام من مقترف الجريمة » . وعلى النقيض من ذلك فان الاسلام يعالج عقوبة الجريمة على النحو التالى :

رجل لرجل — عين لعين — سيدة لسيدة • وهناك الدية ، مع أن الاستخدام العمانى « الاعتذار — سحب الدية — اذا قرر القاضى ، طبقا للحادث ، وحالة الأشخاص محل النزاع » ، حيث ان الرسالة الاسلامية والقانون العرفى قد اتصل به مفهوم أوسع للتعويض الالزامى للمجنى عليه ، وحسب مفهوم الاباضيين للعدالة فان واجب كل مسلم ، أن ينصح الآخرين لعمل الخير ، ويمنعهم من عمل الشر ، والكل يتساوى بغض النظر عن اللون أو الجنس ، المكان الأعلى للأكثر تقوى « ليس لعجمي فضل على عربى ولا لعربى فضل على عجمي الا بالتقوى » •

والقانون يطبق على كل مسلم حتى ولو لم يعلم به لتقصيره فى طلب العلم • ومصادر القانون محددة ومنتقاة بعناية ، ويعد الانحراف عن المصدر الحقيقى إثم يستحق عذاب الجحيم •

ويسير الأباضيون على القرآن والسنة ، وما يستخرج منهما ، عن طريق
اثمتهم ويسيرون على منهج أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، فى الخلافة ،
والالتزامات الشرعية ترتبط بالأفكار الدينية ، وأكثر الأنظمة الشرعية
مرونة اليوم هى الموجودة فى الجزيرة العربية ، والتى تصل حتى
أفغانستان ، ونيجيريا ، والهند ، ومعظم العالم الإسلامى ، وأما المأخوذة
من القانون الغربى « الأجرام — العقوبات — المدنى » وما الى ذلك فهى
اشتق من القانون الرومانى •

وكما قال السلطان ان ما يحلو فى عين فرد قد لا يحلو فى عين الآخر ،
ولكن هناك أشياء سيئة فى نظر كل الناس •

وذكر لنا والى صحار ، أن القاضى هو الذى ينظر فى النزاعات ،
والقضايا الاجتماعية ، والمدنية « طلاق — زواج — ميراث » وليس
السلطان أو وزير الداخلية ، ويتم رفع حالات القتل دائما الى السلطان
للنظر فيها •

ويعتبر والى اسماعيل بن خليل ، والى مطرح ، هو والى الأول فى
ساحل الباطنة كله ، وهو لا يرأس القاضى من الناحية القانونية ، وقد
لحق بخدمة السلطان عام ١٩٢٨ كمعلم من فلسطين ، ثم عين واليا مطرح
عام ١٩٣٩ ، وهو حافة الوصل بين ولاية الباطنة وبين السيد سعيد بن أحمد
وزير الداخلية ، المسئول أمام السلطان ، عن كل الشئون الداخلية لعمان ،
التي تضم « ٣٣ واليا » وهناك مجلس البلدية ، الذى يتكون من ثمانية
عشر عضوا ، ورئيس ، يعينه السلطان ، ويمثل كل مجتمعات مسقط
ومطرح • •

ويمول المجلس الضرائب الجمركية ، وضرائب ، وإيجارات المحلات

ورسوم تسجيل السيارات ، والرخص ، وله ميزانية سنوية ، وينعقد مرة كل شهر ، ويخضع لقانون السلطنة الخاص بالمجالس البلدية • وأثناء غياب السلطان ينوب عنه عمه ، السيد شهاب بن فيصل ، الذى يكبره بست سنوات ، ومع ذلك سواء كان السلطان حاضرا أم غائبا فان عمه يضع فى يده أمور المالية ، والجيش ، والشئون الخارجية ، وتعتبر حكومة عمان امتدادا لشخصية السلطان •

وقد صحبتنا رئيس الجند التابع لوالى صحار ، لزيارة مدرسة خارج الحصن ، وشاهدنا سيدة عجوزا ترتدى برقا ، وقام بيل بتصويرها بعد اقناعها ، ثم سار كل شىء على ما يرام • وكان بالمدرسة ستة وعشرون تلميذا ، بين بنين وبنات ، لكل مجموعته الخاصة ، ويجلس كل تلميذ على الأرض فاتحا المصحف الشريف « وهنا المعرفة التى لا حدود لها •• معرفة الله وتعاليمه » •

وللحق فالجزيرة العربية — فى الواقع — عالم كبير لا يسعه كتاب •

ويركز السلطان دائما على أن يبين لشعبه أن العلم ، والتكنولوجيا والمعرفة يمكن أن تزيد الرخاء ، وترفع مستوى المعيشة •

وهناك نظامان للدراسة فى مسقط ومطرح ، النظام الأشمل أو الأوسع وهو يتمثل فى المدارس الحكومية •• مبان جديدة •• والتدريس باللغة العربية خلال ست سنوات •• واللغة الانجليزية فى السنوات النهائية •

وتهدف الدراسة لدى الحكومة بالخبرات ، والكفاءات اللازمة من الشباب وهناك مدارس لتعليم القرآن •

وهناك اتجاه مشجع نحو التعليم والتثقيف الذاتى ، بالاعتماد على

النفس وبدء مرحلة الاستيقاظ نحو العلم ، وكما يقال : « ان أول خطوة للمعرفة هي الشك » .

وهناك الآن تعليم واسع ، بل أوسع مما سبق ، في العلوم الاجتماعية ، والسياسية ، والعلم ، والأدب ، وهناك الكليات والجامعات التي تعمل على رفع مستواها وتحسين كفاءتها ومحاولة اللحاق بالركب الغربى ، وان كان من غير الممكن أن يرتفع مستوى مؤسسة تعليمية دون ارتفاع مستوى مدرسيها .

ونحن في الغرب ندين بتقدمنا لمدرسينا ، واذا ما توفّر للعرب نفس التقدم في التعليم فلن يقلّوا عنا في شيء ، وعلى أية حال فقد كان العرب رمزا للحضارة ، بينما كنا نحن لا نزال في ظلمات الجهل في العصور الوسطى .

ولكن لماذا فقد العالم العربى زعامته الفكرية ؟ وأين البحث المبكر ، والنشيط عن المعرفة والحقيقة ؟

لقد وقف كل هذا بسبب عدم فهم العقيدة ، حيث ظن العرب أن التجديد قد يدفع بهم الى الانحراف عن طريق الحق . كما أن هناك الايمان الشديد بالقضاء ، والقدر لدى المسلمين ، وهو من أعمدة العقيدة الدينية التى ينشأ عليها الفرد ، ويطبّقها على كل أعماله العقلية والجسدية ، وحيث أنها تبعث السلام ، وتجذب الندم ، واليأس وقت الشدة .

ويتمسك الاباضيون جدا بالقضاء والقدر ، من وحى أن الله خالق الأشياء . . . الخير والشر . . . ولا شيء جديد في ذلك « خالق النور والظلام » ويقول الاباضيون ان الخلاص يأتى من الله ، وليس بالأعمال « لماذا نحارب المكتوب ، ان القدر لا يتحول ، والمصير لا يمكن أن نتحاشاه » . . . المصيبة

هى رحمة فى كامنها « المصائب قد يكون لها الجنة » أما المسلمون المتقدمون فللقضاء والقدر لديهم معنى أكثر قيمة وروعة من ذلك « اعقلها ثم توكل » ويضعون محل كلمة القضاء والقدر كلمة « التوكل » وأن الله يخلق كل شئ والانسان لا يمكنه أن يتصرف خيرا أو شرا •

ورغم الركود الاقتصادى والسياسى الذى يعانى منه المسلمون اليوم الا أن العلاقة بينهم وبين خالقهم متينة جدا ، ويذكرون عظمة الله سبحانه وتعالى باستمرار ، وأنه لابد أن نعتزف أن القرون الأولى للإسلام كان بها رجال علم ودين ، ورفعة وسمو ، رجال شجعان ، سعوا فى الأرض وتوكلوا على الله ، وربطوا بين الدين والعمل ، وقاموا بواجبهم على أكمل وجه •

وفى عام ١٨١٧ ذكر الشيخ منصور فى كتاب « العرب فى شبه الجزيرة العربية » أن سكان الجزيرة العربية لهم اعتبار واحترام جدير بالاعتبار ، أما الانحطاط والكسل فهو يعود بمجمله الى طبقة الحكومة والقوانين التى يخضعون لها •

وبينما كان الحفر الذى بدأه « هانيمان » قد أوشك على الانتهاء ، كان من الضرورى أن نوقف العمل ، وفى منتصف يناير قررت أن يستمر العمل يوم الجمعة ولكنهم رفضوا ، وتم التغلب على ذلك برفع المرتب روبية زيادة ، تدفع لأحسن ستة رجال ، نريد أن نستبقيهم للعمل ، وكان هدفنا فى ذلك الوقت المدفن اليهودى القديم ، الذى يقع على بعد ميل ونصف من صحار •

وقد سجل ويلستد فى كتاب رحلات فى الجزيرة المجلد الأول ص ٢٣١ وجود عشرين أسرة يهودية فى صحار ، فى العقد الأول من القرن التاسع

عشر ، وكذلك السلاجقة بعدهم ، ويبدو أن لجوء اليهود الى هذا المكان كان خوفا من بطش حاكم بغداد ، داوود باشا ، وخلال الفترة التي كان فيها الدكتور « جيمس • س جيكر » جراحا في مسقط ، من عام ١٨٧٠ وحتى ١٩٠٠ ، كان هناك عدد قليل من بنى اسرائيل يعيشون في صحار ، ولكنهم لا يعرفون أصلهم ، ولا يستطيعون أن يقدموا أو يحددوا تاريخ هجرتهم الى عمان ، وفي عام ١٩٥٨ لم يبق منهم غير المدفن ، وعند الوصول الى المدفن القديم في جميدى كانت هناك مقبرة قديمة للغاية ، وطول الأجزاء المرئية من المقابر حوالى ستة أقدام ونصف ، وعرضها أربعة أقدام من الطوب ، وهناك طوب يغطى نصف المقبرة ، ثم بدأت تظهر فتحات عديدة •

وباستخدام الضوء استطعت أن أرى هيكلًا عظميا كاملا في الداخل ورأيت أسلوبا غريبا لدفن الموتى ، حيث كانت الجثة في مربع مرتفع عن سطح الأرض ، وبالفحص اتضح أنها جثة لذكر بالغ ، وكانت العظام هشة ، وكانت الأسنان مليئة بالحفر والتجاويف ، وفي خارج المقبرة كانت هناك أسماء يهودية كثيرة ، مثل : موسى ، يوسف ، يعقوب ، مكتوبة بلغة عبرية ، وبدأ العمل في هذه المقبرة المتراكمة ، ولسبب ما لم يكن هناك أى سطح فوق هذه المقبرة ، وعلى بعد بضعة أقدام للأسفل وجدنا حجرة الدفن ، ثم وجدنا تجويفا ، واتضح وجود هيكل عظمي لذكر آخر ، ووجهه الى الشرق ، وأعد بيل الوجهه عاكسا للضوء على المقبرة حتى استطاع أن يلتقط فيلما للهيكل العظمي كاملا •

وبينما بدأ العمل للردم صرخ أحد العمال الزنوج •• الى أين يسير العالم ؟ أنا مسلم أعمل هنا لمدة ثمان ساعات يوميا ، وأحفر في عظام يهودى ميت ، ثم قال لى بعد ذلك انه سيعمل معى مدى الحياة اذا أعطيته ثلاثمائة دولار وأخذته معى •

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كقدوة حسنة كان له تأثير كبير على هؤلاء الناس في ذلك العهد بالنسبة لتحرير العبيد ، وقد أعتق عليه السلام عبدا هو « زيد بن حارثة » الذى أصبح ابنه أسامة قائدا لجيش أبى بكر ، وأصبح من أعظم قواد قريش •

ورغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اعتبر ملكية العبد كجزء لا يتجزأ من النظام العالمى السائد ، ووجدها تسود في ذلك الوقت إلا أنه تحدث عنها بكلمات مشددة مؤكدا على انسانية العبيد ، ووجوب الرحمة والعطف عليهم ، والاسلام يقاوم الرق والعبودية ، ويدينهما ، كما أدانتها المسيحية واليهودية •

وركز الاسلام على ضرورة تحرير العبد ، وعلى الثواب الذى سيناله كل من أعتق عبدا ، وقد قال عليه السلام ما معناه ، ان أسوأ الرجال هو بائع الرجال ، وكان الذين رفضوا هذا المبدأ في العصر الاسلامى هم قساة القلوب فقط • والعبد يتبع ديانة سيده ، ولذلك فكل العبيد في عمان مسلمون ، وفي معظم الأمثلة نجد أن الاسلام قد قيد العبودية بالقوانين ، واللوائح الدينية ، بحيث لم تعد العبودية هى النموذج المخيف للقسوة والأذى ، الذى يتبع في مناطق أخرى من العالم ، والعبيد في عمان لا يفكرون أبدا في ترك أسيادهم ، حيث يعتبرون جزءا من الأسرة ، وتجمعهم روح الاخوة الاسلامية التى لا تفرق بين السيد وعبده ، ولذلك ربما يأكلون في طبق واحد ، ويرتدون نفس الملابس ، ويقول العمانيون ان العبد هو عبد سيده ، لكن في حالات أخرى يكون مثله ، ولكن هل يمكن للعبد أن يطلق زوجته الأمة في عمان ؟ الاجابة بالنفى لأن هذا يتوقف على السيد •

واذا أراد العبد أن يترك سيده فلن يرجعه أحد ، ومنذ ثلاثين عاما سرق أحد تجار الرقيق — وكان سبيء السمعة — عددا كبيرا من

المغلّمان والبنات من ساحل مكران ، وسافر بهم الى ساحل الباطنة ، ليبيعهم هناك في السعودية • وهرب عبد منهم وأبلغ الأمر للسلطان فحررهم جميعهم في الحال ، واذا كان قد تم القبض على البائع الأمضى إقامة طويلة في سجن السلطان •

والقرآن الكريم يحث على تحرير العبيد ، ويقال ان الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه قد أعتق ما يربو على ألفين وأربعمائة عبد أثناء حياته ، وقال : لا يمكن أن أتحمّل هذا الرق ، انه يرهق ضميري ، أن احتفظ بالعبيد « من يعتق عبدا مسلما أعتقه الله من النار » • • وتحت لواء الاسلام ، فعندما يعتق عبد فان السيد يعطيه ورقة أو شهادة أمام الشهود بأنه أصبح حرا ، وهناك أمثلة كثيرة لسيد يعتق بنتا ليتزوجها ، وهذا يشتمل على حكمة عربية ، مؤداها أن العبد عندما يتزوج من امرأة حرة فان أولاده يصبحون أحرارا ، ولكن الأمة تلد عبيدا •

وفي نوفمبر عام ١٩٦٢ أصدر رئيس الوزراء السعودي الجديد ، الأمير فيصل ، قرارا بإلغاء نظام العبيد في البلاد •

وقصة بلال ، ذلك العبد الأسود ، ذو الصوت الجميل ، والذي جعله الرسول عليه الصلاة والسلام أول مؤذن في الاسلام ، وكان أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، هو الذى أعتقه ، وقد كان بلال في مناسبات عديدة يتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام حاملا الرمح ، وكذلك أسامة بن زيد بن حارثة الذى قاد جيش أبى بكر ضد الرومان ، وكذلك قطب الدين مؤسس الامبراطورية الاسلامية ، وكان هو الآخر عبدا وعندما كان عمرو بن العاص على وشك أن يفتح مصر ، أرسل عبدا أسود لمناقشة شروط الاستسلام البطريرك المسيحى ، الذى قال « ابعدوا عنى هذا الأسود لا أريد أى مناقشة معه » وعندما علم أن الرجل الأسود

هو أحب الناس لدى عمرو فاتح مصر اندهش لذلك ، وقال « حسنا ، اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه يتحدث بلطف ، حتى لا يخيف مستمعيه الببيض » •

وبذلك استطاع الاسلام أن يجعل العبد ذا شأن كبير •

وقد قيل عن العبودية في عمان « ان الدين يقرها ، والنظام الاجتماعى يعتمد عليها ، ورفاهية العبيد أنفسهم تتطلبها » •

ومع ذلك فان يوما أو ساعة في الحرية لهى أثمن من العمر كله في قيود • وبينما الأعوام تمر يقل عدد العبيد المولودين ، يوما بعد يوم ، وسيأتى ذلك اليوم السعيد ، الذى تتغلب فيه انسانية الانسان على اغتصاب حقوق الانسان •

« فلا يعد رجلا صالحا من يتحكم فى رجل آخر ، والعبودية كلها سواء كانت فى أى مجتمع ، فى مرحلة من مراحل تطوره ، سوف تموت وتنتهى ، سواء فى عمان أو فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية ، لأن العبودية تحمل فى طياتها الظلم ، وهو الشئ القبيح فى الطبيعة الانسانية » •

« أليس الرحم الذى حملنى كان يمكن أن يحمله •• أليس الذى خلقنى وخلقته واحدا » •

الفصل السادس

- عمال صحار — لفة الملائكة — لورانس العرب —
- الحماية البريطانية — دبی النشطة — البحرين —
- أمبراطورية الخليج — القراصنة واللؤلؤ *

حرصت ورفاقي في كل رحلاتي أن أتعمق لبعض الشيء في من يعملون معنا ، من العمال العمانيين العاملين في الحفر ، وكان من السهل أن نتمازح في كسل بعض العمال ، ولكن بعضهم كان يقول : من الصعب أيضا أن أعمل تحت هذه الظروف القاسية ، مقابل أربعة ثلثات يوميا ، حتى ولو شجعني البعض على عمل ذلك ، وصعب أيضا أن أعمل إذا دهمني المرض ، وقد بذلنا قصارى جهدنا لتجنب هذه الحالة المعنوية التي يمكن أن يصل اليها العمال *

ومن خلال ملاحظاتي في رحلاتي الى المنطقة العربية وجدت أن العربي يعمل بجهد ونشاط ، ورغم أن هذا العربي لا يحصل على مقابل هذا العمل ، ولكنه يتسم بطموح كبير يمكنه من أن يحقق الكثير لولا الحالة الاقتصادية التي تمنعه من أن يحقق ذلك حتى ان الفرد الواحد ، ذا الطموح البارز ، لا يستطيع أن يهرب من طقولاته المقهورة لأنها تطارده *

وديناميكية المجتمع الأمريكي والأوربي ، الذي استغرق الكثير من الأجيال كي يتطور ، بدأت مع المهاجرين الأوربيين الأوائل ، الذين يمثلون أكثر أفراد مجتمعاتهم طموحا في ذلك الوقت ، والمحظوظ من العرب هو من يصرح له بالسفر الى أمريكا ، فذلك الذي يعاني من حالة اقتصادية سيئة في بلاده يدخل أمريكا بنفس طاقته ، فيجد النجاح ، كما لو كان من

أصل أمريكي * وربما يكون نفس الطموح هو المسئول الأول عن الفساد في المجتمع غير العربي *

ويتحدث جون ماولو عن ايران ، فيفسر لنا ذلك بقوله : في الواقع ، ان شعب أوروبا وأمريكا عادة يدفع الضرائب ويطيع القانون في الكثير من الحالات مثل تراخيص البناء *** الخ ، لأن الناس أقل فسادا ، وأكثر خوفا على الشعور العام ، ولكن لأن ميكانيكية الحكومة ذات فعالية كبيرة ، فهي تؤكد للناس أنهم لن يهربوا من الضرائب ، ولن يستطيعوا عصيان القانون *** ومع ذلك فهم أحيانا لا يفعلون ذلك *

وفي المساء بعد أن توقف ساندی عن العمل بفريقه وصلته رسالة من أحد من عماله ، الذين شعروا بخيبة الأمل لاعفائه من عمله ، وكان من المفروض أن يلحق هذا العامل بالفريق في اليوم التالي *

ومن خلال اتصالنا بالناس عرفنا أنهم أكفأ شعوب الشرق الأوسط ، وفي مناطق أخرى من الجزيرة العربية مثل مصر والأردن يميل العمال الى المشاحنات والشغب والتمرد ، وقليل ما يقومون بالعمل الأمثل ، ولكن عمال صحار يحبون العمل ، ولا يحبون النقاش أو الجدل ، ويدخرون قواهم لعمل اليوم التالي *

وكي نكون أكثر دقة فقد تحدثنا مع العمال ، ولم يكن بينهم أعزب واحد ، وهذه عينة من الذين أجرينا معهم بعض الأحاديث الخاصة *

١ — جمعة بن عبد الله ٢١ عاما — متزوج — يعيش في كوخ بسيط * ماتت زوجته الأولى أثناء الولادة ، بعد فترة من الزواج ، وتوفيت في سن ١٥ عاما ، ثم تزوج من أخرى ، وأنجب ولدين *

٢ — محمد بن سيف — ٢٠ عاما — يسكن في منزل — يملك مائة وخمسين شجرة — متزوج في سن ١٥ عاما ♦

٣ — جمعة بن فرحان — ولد عبدا منذ ٣٠ عاما ، تم شراؤه في سن التاسعة — هرب بعد ١٤ عاما ، وتم تحريره في مسقط ، تزوج منذ ست سنوات ، له ولد وبنت ♦

٤ — أحمد بن صالح — ٢٥ عاما — يسكن في منزل ، ويملك بقرة ، وتزوج منذ أربعة سنوات ، وأنجب ولدين ♦

وتعرضت صحار بموقعها البحري لتأثير اللغات الأجنبية ، فلكى تنادى على العمال لمزيد من الجهد يقول رئيس العمال بالهندية « شوباش » و « برافو » وبين عشرين عاملا كان هناك عامل واحد فقط من مسقط ، من أصل عربى يعرف قبيلته الأصلية ، ومعظمهم من البلوش ، بينهم ثلاثة أو أربعة من الفرس ، والباقي من افريقية ، واللغة الشائعة هي اللغة العربية ، ويتحدث البلوش لغتهم الخاصة فيما بينهم ♦ ♦ وهكذا فلغتهم خليط من العربية والفارسية والبلوشية ♦

واللغة العربية تنتمي الى اللغات السامية ، وقد استطعنا أن نميز الكلام الأصلي والواضح بمرونة كبيرة ، وباستخدام قاموس كبير ، ذى قواعد ضخمة ، وكلمات كثيرة للتعبير عن الأفكار الفلسفية ، واللاهوتية والعلمية ، في حالات عليا ♦

واللغة العربية تتميز بدقة ملحوظة ، وهى مليئة بمصطلحات جيدة ، تعبر عن العواطف والأحاسيس ، وفن الخطابة ، وقد استعارت اللغة الانجليزية مئات الكلمات من اللغة العربية ، وقد تعرضت اللغة العربية أكثر من اللغات الأخرى لمصير الجنس البشرى ، وتعدد حدود الأرض ، وتوسعت

في المعانى أكثر من أية لغة ، وليس هناك كتاب في التاريخ أو الحضارة يعادل القرآن الكريم ، وقد قال الباحث العربى « محمد دميرى » ••
الحكمة توجد في ثلاثة : الفرنجية • رؤوس اليابانيين • واللسان العربى •

واللغة العربية لها روعة خاصة بكلماتها ، لا تضاهيها أية لغة أخرى في التعبير عن العواطف ، لأنه اذا كانت اللغة هى مقر الروح ، فان اللغة العربية هى المنزل والتمثال ، الذى يرتدى أفكارا مشرفة في كلمات قوية ، ويعبر العربى عن نفسه في حكم ، وجمل ، وتشبيهات رائعة ، نعبر عن طلاقة اللسان •

وفي عام ١٩٠٣ كتب الكولونيل أ • س • جاكار ، في مقدمة قائمته النادرة والقيمة للحكم والأمثال العمانية يقول : حتى ان الباحث في العلاقات السببية ، لا يمكن أن يلاحظ هذا الاستخدام الشامل والواسع الذى يقوم به العمانيون ، في أقوالهم المأثورة ، وفي محادثاتهم ، ولا يمكن أن يمر دون ابداء الاعجاب من السهولة التى يستخدمونها بها ، عندما تدعو الحاجة ، وأروع من ذلك أن المبادئ الأخلاقية تلقن عن طريقها ، ويمكن اعتبارها جزءا من تراث الجنس البشرى منذ عصور بعيدة •

ولاحظ « ويلستد » أن العرب لا يتحدثون الا بأن يجعلوا حديثهم يشتمل على مثل هذه المعانى ، واللغة العربية عند العرب هى لغة القرآن ، ولغة الوحي ، والالهام الذى ينزل على الانسان ، وهى اللغة الأم ، ولغة الجنة ، وهى التى سيتحدث بها الله سبحانه وتعالى ، وسوف يحكم بها العالم ، وهى لغة الملائكة ، وعناصر الجمال في اللغة متعددة ، ذات قاموس ، ليس له حدود ، وهى غنية بالمترادفات •

وفي الوقت الحاضر تمثل اللغة العربية الاختلاف الرأسي ، الذي يعتمد على الطبقة الاجتماعية ، والاختلاف الأفقي الذي يعتمد على الفصل الجغرافي .

ويقول الغرب : ان الاختلاف والتطور اللغوي للعربية هو نتيجة اجتهد كبير ، لأنها من أصعب اللغات في العالم .

ويقول « بان فالكونر » عضو البعثة اللغوية ان القواعد النحوية العربية يجب أن ترتبط بقوة لدى الدارسين ، لأنهم أحيانا يلقون بها على الأرض ، وهناك مثل رائع وهو لورانس ، وكيف أتقن العربية ، وتنقل وسط العرب ، دون تمييز كعربي ، وقد تحدث مع الكثيرين عن كيفية اتقانه للعادات والتقاليد ، وكيف أنه يستطيع أن يتحدث بالعربية عندما يريد ، وكيف استطاع أن يتجول وسط العرب كشاب عربي ، أو كشاب من طرابلس ، ولكن ذلك لا يعنى أن الأجانب لا يستطيعون تحدث العربية مثل لورانس ، فالكولونيل « ج + ايثسمان » كان ملحقا انجليزيا ، وكان واحدا من مكتشفى الجزيرة ، وكان يتحدث العربية كأهلها .

وذات مساء ، دعانا الشيخ هلال بن سلطان لزيارة قريته ، الخابورة على ساحل الباطنة ، وبينما كان « كروز » يعالج ابن الشيخ الصغير من العمى في إحدى عينيه ، تحدثت أنا والشيخ عن أطلال وخرائب المدن القديمة ، وقد ذكر مكانا على بعد أربعين ميلا من الحاجر ، به كميات كبيرة من الطوب المهشم في كل من الجبال والى أسفل في السهول ، ورغم العروض الرقيقة لضيافتنا فقد أرجأت ذلك الى زيارة أخرى .

وفي الصباح بدأنا نعد للرحيل قاصدين الشارقة ودبي ، وقد قررت أن أترك روى ، وعلى ، في صحار لكي يستمرا في البحث أثناء غيابي ،

وفي الطريق توقفت عند قصر جيش صحار حتى اتصل بالسلطان ، وبالإضافة الى فريقنا (د • كروز ، وجاما ، وساندى ، وأنا) كان معنا عمانيون اعارهم لنا السلطان وهم (عبد الكريم ، وطائب بن سلطان) •

وخلال الأربعة وأربعين ميلا الأولى كانت الرحلة صورة من رحلتنا من مسقط لصحار ، وامطرت السماء في الصباح ، وكانت الأمواج عالية وبدأت الشلالات الجافة تمتلئ وتشمل وادى نبر ، وتمر بصعوبة في الصخر وعلى مزارع اسماك في لوى ، وشناص ، والمرير ، وتتكون هذه الأماكن من نفس أكواخ النخيل في الباطنة ، ورغم مرورنا بها الا أننا لم نفحصها جيدا ، وتسيطر على كل من لوى وشناص قلاع خربة من أيام الازدهار الماضية ، وفي يناير عام ١٨١٠ تقابلت قوات السلطان سعيد الكبير والانجليز في جانب من حصن شناس ، وهناك أمثلة رائعة وبطولات مجيدة ، ترويهما أطلال هذا الحصن •

وبعد طعام جيد عند وادى أسود عدنا للجبال ، وتتبعنا وادى القور والأراضي هنا تبدو وكأن نموها قد توقف ، والمكان مليء بأشجار السنط ونباتات الطرفا ، والدخن وأشجار النخيل ، والحمام الطائر ، في الحال أرسلنا تحياتنا الى مكتب جمارك السلطان •

وعندما تسلم أحمد بن نوروك خطابى من السلطان قبله ثم وضعه على جبهته ، ثم ذهبنا عند أحمد الذى أكرم ضيافتنا على أكمل وجه •

والنظر من أعلى وادى القور يذكرنى بشبه جزيرة سيناء ، فالجبل عار مليء بسدود جيولوجية وأبواب ، وبين قرية حميلات وبين جبل القور فحصنا الأطلال الصغيرة التى تعرف محليا بالخروص ، وشاهدنا طوبا صغيرا جدا ، ولم يكن للبحث قيمة كبيرة تذكر هنا في هذه البقعة المليئة بالصخور •

(م ٥ — رحلة الى عمان)

وتمتد عمان القديمة الساحلية من شبه جزيرة قطر عبر الخليج الى رأس الخيمة ، وتعتبر خليج عمان لمسافة ثلاثمائة وخمسة وعشرين ميل ، ويعرف بساحل القراصنة ، وأصبح هذا الساحل ساحلا مسالما عندما قام الشيوخ في القرن التاسع عشر بهدنة مع حكومة الهند - الحارس القوي للخليج في ذلك الوقت ، والحاكم الذي يفض المشاحنات والخلافات السياسية في شبه الجزيرة العربية •

وتعرف هذه الاتفاقيات والمعاهدات بمعاهدة الصلح أو اتفاقية الهدنة ، وهي تحتوي على عبارات تستثنى الأجانب من تملك الأراضي ، وضمان الأمن البحري الخليج ، وتنظيم تجارة الرقيق ، والغاء القرصنة ، وبالفعل فقد هاجم هؤلاء الشيوخ بعضهم ، واستولوا على ممتلكاته •

وفي عام ١٨٢٠ قام ثمانية مشايخ بتوقيع (معاهدات هدنة) ، وتشمل هذه المشايخ البحرين ، وقد أخذ الساحل اسما من هذه الهدنة فأصبح اسمه عمان المهادنة أو المتصالحة ، ويتكون ساحل عمان المهادنة هذا من سبعة مشيخات صغيرة ، منها دبي ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، ومنذ عام ١٩٥٢ أضيفت مشيخة الفجيرة ، الصغيرة الحجم ، التي تواجه خليج عمان •

ورغم أن الحماية البريطانية لم يتم اعلانها على هذه الامارات ، ولكنها كانت مستترة تحت اتفاقيات معينة وتدخل ، واملاء أوامر فيما يختص بالشئون الداخلية والتمثيل مع الحكومات الأخرى على المستوى الدبلوماسي ، وحول هذه الاتفاقيات تقول احدى وجهات النظر ، ان الحماية تعنى مراقبة ما يدور الى أن يتغير الناس ، ويستطيعون أن يدبروا أنفسهم بلا رقيب ، وقد تضمن خطاب اللورد « كرزن » عام ١٩٠٣ بمناسبة زيارة ملك الهند للمنطقة ما يأتي :

« نحن لم نستول على أراضيكم ، ولم ندمر استقلالكم ، ولكن
حفظناه دون احتلال للأراضي ، والحماية ليست ظلما أو قهرا » *

ويبلغ عدد سكان الساحل حوالي مائة ألف نسمة تقريبا ، وهم خليط
من العرب ، والفرس ، والبلوش ، والهنود ، والزنوج ، وكل سكان الساحل
مولعون بالبحر أكثر من أى مجتمع آخر في الجزيرة العربية •

وبحلول الليل سرنا الى دبي ، وهناك أخبرونا أنه توجد الاستراحة
الوحيدة ، لذلك عدنا ، وجلسنا في استراحة المطار •

وبينما كنا في صالة الطعام ، رأينا رجلا انجليزيا يجلس أمامنا ،
وقام بدفع ثمن زجاجة الكوكاكولا الصغيرة من أجلى ، وعندما شكرته
جاء وقدم نفسه بأنه مسئول رسمى في شركة البترول العراقية •

وسألناه بعض الأسئلة بخصوص الشركة ، ولكنه رفض الاجابة
بقوله ، انها أسرار ، وأصيب بالدهشة عندما رد « بيل » وأخبره أنه يعرف
كل شيء •

هنا ترى المدينة قائمة على امتداد سواحل الوادى الضيق ،
بشوارعها وحاراتها الضيقة ، وهنا كذلك ترى المباني ذات الأبواب
المزخرفة ، وكلها تقع في مواجهة البحر حيث تستقبل النسيم البارد ،
بسبب نسبة الرطوبة العالية في أشهر يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر
الحارة •

وفي الشمال الغربى على بعد ميل تقع المدينة الحديثة •

وفي الصباح التالى استيقظنا على صوت المطر ، وبعد شراء المؤن

اللازمة من محل هندی فی دبی أخذنا قارباً وعبرنا المجرى المعروف بنهر دبی ، والذي يفصل بين جزئين ، وقد كان هذا المجرى المائي رائعا ، رجل ومجدافان يقومون بكل العمل ، والنهر نفسه أوسع من القارب ، وهو يسع عبارة تحمل أربعمئة وخمسين طناً ، وقد ظهرت دبی عام ١٧٩٩ ، وظلت حتى عام ١٨٣٣ جزءاً من أبی ظبی ، وبعد هذا التاريخ أصبحت منفصلة عن الدولة الأم .

ويبلغ عدد سكان دبی حوالی خمسة وأربعين ألف نسمة ، وهم أكثر سكان ساحل المهادنة تقدماً وعدداً ، وتعد البحرين أكبر ميناء ، ويملك تجار دبی حوالی أربعمئة سفينة ، ويرجع أصلهم الى الشرق أكثر من الغرب ، ومعظم التجارة مع جنوب شرق فارس ، وباكستان ، والهند ، ومقر المشرف السياسي بالباطنة ، أما المقر الخاص لمشيخات الهدنة فقد انتقل من الشارقة ، وهو الآن في دبی ، وهي التي نجحت في التجارة مع فارس ، وتسمى الآن بفينيسيا الخليج .

ويقدر عدد سكان دبی بحوالی خمسة وأربعين ألف نسمة ، أكبر بمعدل ستة مرات من الشارقة ، وهي أكثر جاذبية ، وأقل في التأثير بالغرب ، ولا بد أن الموانئ التجارية على خليج فارس والهند والصين في القرن السابع عشر والثامن عشر كانت مثل دبی اليوم .

وفي الجزء الشمالي من المياه مقاطعة تعرف بديرا ، بينما تقع المدينة الرئيسية لدبی في الغرب ، وهناك تجد المنازل الجديدة التي يمتلكها الهنود والتجار الفرس ، وبرجا هوائيا للتهوية ، والسوق هناك يذكرني بساحل تهامة في اليمن ، حيث أن كلا من الجديدة ودبی لهما معالم متشابهة وشوارع تجارية ، وسرنا هنا رغم الأمطار مخترقين طبقات الوحل الكثيفة .

وفي عام ١٩٣٨ نجح الشيخ سعيد بن مكتوم ، وابنه راشد ، في القضاء على تمرد كان يهدد هذه المدينة ، وفي عام ١٩٤٠ اندلعت الحرب بين دبی والشارقة حول الحدود ، ولكن الشيخ سعيد قاوم ، واستبسل ، ودافع عن أكبر حصن في دبی وخارج دبی ، وقد التقط « بيل » صورا لسلسلة من آبار المياه الفريدة ، وفوق قمة كل بئر كان هناك صندوق خشبي صغير مثبت ، وله قفل * أما تبرير ذلك فهو أن لكل أسرة بئرا ، والماء هناك يباع ، ويربح البائع كثيرا * وهناك نزاعات ومشاكل كثيرة حول هذه الآبار *

وصباح أحد أيام الجمع ودعنا ساندی ، الذي كان على وشك السفر ، عائدا الى انجلترا عن طريق البحرين ، لؤلؤة الخليج *

ولنا هنا وقفة فيما يخص البحرين ، فمنذ عام ١٩٥٣ ، أسست البعثة الاستكشافية تحت قيادة البروفيسور ب * ف * جالوب وجيوفري مركزا مستمرا في الجزيرة ، ومنذ خمسمائة عام كانت البحرين تعرف « بالجزيرة المقبرة » حيث أنها تحتوى على مائة ألف مدفن ، وقد كانت مركزا تجاريا هاما ، يربط الثقافات مع حضارة وادی الأندلس في الهند ، وبفضل هذه الرحلات يمكن معرفة تاريخ مقابر الجزيرة العربية ، والذي يعود الى النصف الثانى من الألف سنة الثالثة قبل الميلاد ، ويعتقد أن البحرين كانت هي ، دلمون القديمة ، كما جاء في الوثائق التي جمعت عن الحضارة السومرية ، وعن وادی الأندس ، وقد كان الفرس يحكمون البحرين من عام ٦١٥ م وحتى ٧٢٣ م ، واحتلها البرتغاليون من عام ١٥٢١ حتى ١٦٠٢ * والموقع الاستراتيجي الحديث للبحرين يعود تاريخه الى عام ١٧٨٣ ، وهو نفس العام الذي طرد فيه شيوخ العرب الفرس من الجزيرة ، ومع ذلك فقد دفعوا الجزيرة لفارس ، ولكنها لم تستمر ، وفي

عام ١٧٩٩ قامت عمان •• بأربع سفن ، وستة قوارب ، وبشجاعة نادرة ، ودون أن تخشى الفرس واحتلت البحرين للمرة الثالثة في القرن الثامن عشر •

وهناك بقايا حصن عماني كبير ، شيده أثناء تلك الفترة ، السيد سعيد بن سلطان بن أحمد على شاطئ البحر ، ثم خرج العمانيون ، وقد هزم العمانيون نتيجة خدعة ، وبسبب الكوليرا •

وقد قضيت ساعات جميلة مع أمير البحرين القدير ، الشيخ عيسى ابن سليمان ، في فندق بلندن « دروسيتز » وكذلك في البحرين ، وقد ناقشنا مشاكل الخليج •

وبعد وفاة والده السيد سلمان في ٢ نوفمبر عام ١٩٦١ عن تسعة وستين عاما أصبح الشيخ عيسى حاكما لامارة البحرين المستقلة ، ورغم الحماية البريطانية على البحرين فان بريطانيا تمارس هذه الحماية بطريق غير مباشر ، وتقوم البحرين بالتمثيل الدبلوماسي مع قطر •

وهناك قضية أخرى ، هي أن فارس تعتبر البحرين جزءا من أراضيها الاقليمية ، وأنها « أي البحرين » تمثل تهديدا لأراضيها •

وفي الفترة التي أعقبت وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، كان الخليج في يد الفرس ، ولكن مع بداية القرن العاشر حاصر بحارة عمان كل التجارة ، الى أن استولى البرتغاليون عليها ، ثم جاءت أسبانيا بتشجيع من انجلترا •

وهناك أعمال نشطة في القرى الساحلية تقام للبحث ، واستخراج اللؤلؤ الذي تحدث عنه الشعراء العرب ، ووصفوا أمطار الربيع التي تسقط

على شاطئ اللؤلؤ ، الذى يمتد عبر الشواطىء العربية للخليج ، من دى جنوبا ، الى الكويت شمالا •

والبحرين هى المحور الرئيسى لصناعة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هناك هو الأكثر صلابة ، ويتم استخراجها من مياه البحر العميقة ، ويبدأ الغطس لصيد اللؤلؤ فى يونيو ، ويستمر حتى الأسبوع الأول من أكتوبر ، وأفضل الأماكن لوجود اللؤلؤ هى التى تكون على بعد خمسة أو عشرة فراسخ تحت الماء ، وهناك شعار يقول « اجعل ابنتك ترتدى لؤلؤة من البحرين » •

وقد عانى ساحل الهدنة كثيرا بسبب اللؤلؤ فى الماضى ، سواء عن طريق القرصنة أو الاحتلال • وقد كانت القوارب هناك تعد بالآلاف ، واليوم ليس هناك سوى مئات قليلة •

ومستوى معيشة صياد اللؤلؤ منخفض جدا رغم عمله الشاق ، فهو يحصل على مكافآت قليلة جدا ، وتراه دائما فى ديون مع صاحب العمل ، حيث ان المنصرف أكثر من الربح ، أو المكافأة التى يحصل عليها ، وهناك أخطار عظيمة وخطيرة تواجه صياد اللؤلؤ وان كان هذا قد اختفى الآن الى حد ما • ورغم كل ما يعانى به صياد اللؤلؤ الا أن يردد دائما •• ماذا أفعل ؟ هذا هو الواقع ، وتلك هى الحال •

الفصل السابع

أحوال العرب — قانون الخيمة — جبل الشيال

الحكيم حجا — البريمي

لا نكون مبالغين إذا قلنا ، ان الدليل العربى الذى كان يصحبنا كان هو السبب فى تضليلنا الى حد ما ، فقد سار بنا فى الطريق الخطأ ، وفى النهاية أوقف جاما قافلة كانت تمر بنا حاملة الفحم ، وسأل قائدها عن الطريق ، وهكذا صححنا مسارنا ، ووصلنا فى المساء الى جبل المينى ، وهو جبل كامل مغطى بالأطلال ، وقد بدت المنازل القديمة كأطلال قديمة ، أعيد استخدامها ، وقد ذكرتنا هذه بساحل ظفار وأطلال حاسك • وكان من الصعب تمييز المباني المشيدة من الحجر الطينى عن تلك المشيدة من الأحجار الصخرية •

ومن قمة الجبل شاهدنا هناك خلفية هادئة من الأطلال ، والحقول المحاطة بأسوار ، كانت تشمل فلجا صغيرا ، يمتد الى الغرب ، وإلى الجنوب والشرق كانت هناك جبال عالية تطل من أعلى ، ثم اتجهنا الى وادى أراميا ، حيث كان الجو أكثر برودة ، وحيث توجد بعض التكوينات الجيرية ، وعندما حل الظلام وصل مرشدونا الى واد ضيق عميق ، ذى ماء جار ، وأشجار سنط وأحراش كثيفة ، وذكر أحد المرشدين أننا على بعد ساعة من قرية فحطة ، مقصدنا الأول ، ثم بحثنا عن بقعة فى أعلى الوادى لكى نستريح فيها ، حيث فضل الدكتور كروز عدم الإقامة فى القرية لأسباب صحية ثم عثرنا على مكان جميل ، ووزعنا البنادق ، وقررنا أن تكون الحراسة بالتناوب •

وفي الصباح ، وبعد ساعة ونصف ، من القيادة بالسيارة ، وصلنا الى واحة شرم الجميلة الخضراء ، حيث شاهدنا قرية كبيرة ، وحصنا فيه برج مربع ، تحيط به أشجار من النخيل ، ووجدنا الشيخ عبد الله بن سالم الكعبي ، الذي كان في انتظارنا منذ أربعة أيام ، وكانت تحيته لنا كتحية الشعراء ، رقيقة وجميلة ♦

وقد وصلتني رسالة من السلطان ، وبعد أن قبلتها قرأتها ، فاذا بها أوامر للشيخ عبد الله بمرافقتنا الى البريمي ، ومن هناك تم وضع الاجراءات والترتيبات لتأمين عودتنا الى صحار ♦

وفي الجزيرة العربية يكون الشيخ الصديق هو نصف المعركة في الصحراء الموحشة ، ولهذه الجزيرة سحر وبريق أخاذ ، كواحدة من الممالك القديمة ، وهي تستحوذ — بلاشك — على اعجاب كل من يراها ، وبالنسبة لرجل مثلي فقد أعجبتني تلك البساطة التي يعيش فيها الناس هنا ، ورغم أن هؤلاء العرب غير متعلمين الا أنهم ليس أقل ذكاء من الغربيين ♦ ومنذ فترة طويلة قالت « الليدي آن بلنت » في مجمل حديثها عن البدو « ان البدو لا ينظرون الى الضيافة التي يحسنون القيام بها ، على أنها واجب تفرضه العقيدة والدين فحسب ، بل لأنها عمل يقومون به عن اقتناع عقلي تام » ♦

وكل بدوى سواء كان غنيا أو فقيرا تراه كريما للغاية في ضيافته ، ولقد كان لهذه المعاني من كرم الضيافة صدى كبير على صفحات الشعر العربي ♦

وحتى اذا زار البدوى واحد من ألد أعدائه ، يوما ما ، في خيمته ، ووقف على المدخل ، فان حق البيت أو قانون الخيمة يحتم القيام بمهام

الضيافة في الحال ، حتى ولو كان العدو قاتلا لأحد أقاربه ، فان الأبناء وصاحب الخيمة هم الذين يقومون بخدمته ، وهذه هي القيم الموروثة الخاصة بالضيافة العربية ، ورغم أن الأرض التي نشأ عليها هذا الكرم فقيرة الى حد كبير الا أن الكرم العربي لا حدود له •

وقد تحدث الكثيرون من المستكشفين الأجانب من الغرب عن الكرم العربي ، وضربوا الأمثلة التي رأوها بأعينهم ، وعاشوا لحظاتها التي انطبعت في نفوسهم •

ثم توجهنا الى قرية مأرب ، ولهذه القرية ذكرى غريبة •• فعندما ذهبنا هناك أحاط بنا رجال القبيلة ، وصوبوا بنادقهم الينا • وكانت وجوههم صارمة ، ونبراتهم غليظة ، حتى بدا لنا أننا في أزمة ليس لها مخرج ، وحتى عندما خرج واحد لتحيتنا صوب الزعيم بندقيته اليه ، وهنا تحدث « جاما » الى الزعيم وسأله « ألم يخبرك السلطان عنا ؟ » وهنا قال الشيخ الزعيم : لا وان لديه أوامر بإطلاق النار ، وقال « أنتم أسرى — أو سجناء » وهنا أخذ « جاما » يؤكد له سلامة موقفنا ، وتأيد السلطان لنا ، حتى تأكد من ذلك ، وخرجنا من تلك الأزمة الغريبة •

وخلف تريم قطعنا ميلين ، ومررنا على النويجي ، حيث التقط « بيل » بعض الصور لجبل خويل ، ثم وصلنا الى قرية مخطلة ، وهي قرية الشيخ عبد الله ، عاصمة بني كعب ، والتي تحتل موقعا متوسطا بين ساحل الباطنية ، والبريمي ، والساحل القديم ، وهناك حصن كبير ، يرفرف فوقه علم السلطان ، وهنا نجد العادات العربية ، وكرم الضيافة ، وأكواب القهوة ، والفاكهة اللذيذة ، وخدمة الضيف الرقيقة ، وللقهوة هنا مكانة خاصة في حياة البدو ، فهي لدى العربي كالهواء الذي يتنفسه ، ويقول

البدو للضيوف دائما ، ان القهوة معدة ، وخلال مناقشة هادئة جميلة طُلبت من الشيخ عبد الله للمرة الثانية أن يؤجل موعد الغداء حتى نعود بعد الظهر حيث كنت أرغب في زيارة مقاطعة ، تبعد ثلاثة عشر ميلا في الشمال الشرقي ، وأخذت وقتا طويلا حتى أقنعتة ، فالمستكشف هنا يحتاج للصبر دائما ، وكما تقول الحكمة العربية « العجلة من الشيطان » ♦

وفي مدينة تباح القديمة تغطي الأطلال مساحة كبيرة من الأرض بلا مبان مرئية ، وتوجد فقط أساسات صخرية منتشرة هنا وهناك ، وخنادق ، وتشابه هذه الآثار مثيلتها في فلج السوق ، وهنا يوجد مجرى مائي أفسح لنفسه المكان في الصخر الصلب ، وخلال أربعين دقيقة عدنا لقرية مخطة ، وتناولنا الطعام لدى الشيخ عبد الله ♦

وأثناء الطعام تذكرت أقصوصة مضحكة ، من أقاصيص التراث تروى ما حدث للحكيم جحا في ضيافته لرجل جاءه وأعطاه مصباحا ، وطلب عشاء ، فأكرمه جحا وأحسن اكرامه ، وفي اليوم الثاني أتاه رجلان ، وقالوا له : انهما صديقا صاحب المصباح ، وتناولوا العشاء ، وفي اليوم الثالث أتاه ثلاثة ، وقالوا له انهم أصدقاء الرجلين ، صديقى صاحب المصباح ، ويريدون عشاء ، فأكرمهم كذلك ، وفي اليوم الرابع جاءه خمسة وقالوا : انهم أصدقاء الاثنين ، صديقى صاحب المصباح ، وطلبوا عشاء ، فقدم لهم جحا الماء فقط ، وقال ان هذا الماء هو صديق ماء الثلاثة رجال أصدقاء الرجلين ، صديقى الرجل ، الذى أعطاه المصباح ، وأوقد النار عليه ♦

وقد كان الشيخ عبد الله كثير الفخر بابنيه الصغيرين ، اللذين م يجلسا معنا ولو للحظة ، وقد قدم لنا الشيخ بعض رجاله وحارسه الخاص ، ليسيروا بنا الى جبل حفيت ، الذى يرتفع على الصحراء كموت

يقف على مؤخرته ، وهذا الجبل تسكنه الحيوانات المتوحشة ، ثم وصلنا الى مقر قيادة والى البريمى ، الذى خرج ورحب بنا ، وهو الشيخ سالم ابن حميد ، وعمره ستون ، وقد توفى هذا الرجل فى السيب فى مايو عام ١٩٦٠ ، وقد خدم كوال منذ يوليو عام ١٩٥٧ ، وعندما أعطيته رسالة السلطان قبلها ، ثم وضعها على جبهته ، وأردف قائلا ، بأنه عرف السلطان منذ كان طفلا ، وقد عرضت عليه أن أقيم معسكرا فى الرمال ، ولكنه صاح ، ورفض ذلك بشدة قائلا ، ان كل منزله مفتوحة لخدمتنا ، وقال « أستغفر الله » *

وعند خروجنا وصلنا الى وسط البريمى وهى عبارة عن قلاع كبيرة ، ومنازل من النخيل ، وتضم الواحات تسع قرى ، أقدمها هى البريمى ثم حمامة ، ثم سارة ، حيث قبائل « النعيم وبنى جابر — والشميس » ، وهم يخضعون لسلطان عمان *

واليوم وعندما يقول أى شخص فى الساحل القديم انه « ذاهب الى عمان » فالمقصود والمفهوم هو أنه ذاهب الى البريمى ، أقرب جزء من عمان ، أو فى عمان *

الفصل الثامن

الرمال الحمراء — الرباط القبلى — الأخلاق الحقّة
هى الطريق إلى المشيخة .. الفخر والاعتزاز —
البدو المغيرون — بنو هلال — القيادة أسفل
وإلى الجوى

« فى تلك الصحراء المقفرة ، يسكن العرب الذين
يسمون بالبدو ، وهم أناس ذوو طبيعة ساخنة ،
ودماؤهم حارة ، وهم أقوىاء يعشقون الحرب ،
وطبيعتهم حادة تتسم بسرعة الانفعال »
« سيرجون مانديفيل »

كان الهدف التالى لنا فى البحث هو صفوان ، بأطلالها فى الشمال
الغربى من البريمى على حافة الصحراء ، وكان الشيخ عبد الله مرشدنا
ودليلنا ييذل قصارى جهده ، وقد ذكرت له ، أن هذه البقايا التى نراها
تعود الى مائة وخمسين عاما مضت •

ولقد كان المنظر جميلا بحق هنا ، وكان منظرا لا يمكن نسيانه
بسهولة ، ذلك المنظر بكثبان الرملية الرائعة ، والتى شكلتها الرمال
البديعة ، فصنعت لوحة فنية رائعة •

ثم أقام الشيخ خيمته الخاصة لنا ، ووضع أربعة من رجاله لخدمتنا

وحراستنا بالليل ، وهناك نوعان من البدو « رحالة الصحراء » في عمان *
 المشواوى الذين يسكنون بالقرب من الجبال مثل أولاد العوامر ، أما البدو
 الحقيقيون فهم اللذين يعيشون في الصحراء برمالها ، أو بالقرب من
 رمال الصحراء ، مثل الوهابيين ، وقد سمي البدو بذلك الاسم ، وحسب
 تفسير العرب ، فان ذلك الاسم يعود الى « البادية » ويعتبر الشيخ
 عبد الله مثالا للبدوى الشجاع الكريم ، الذى يعرف النظام انقبلى ،
 تمام المعرفة ، وقد ذكر فى معرض حديثه عن النظام القبلى : أن لكل
 قبيلة شيخا أو رئيسا يحترمه الجميع ، وللاحق ، فقد أسرنى هذا الشيخ
 بابتسامته ولباقتته ، وتوسطه بين الشدة والتسامح *

وكلمة الشيخ تعنى الرجل العجوز المتقدم فى السن ، ولها معنى
 هنا يفوق مجرد المعنى اللفظى للكلمة ، فهى تعبر عن الكياسة والحكمة
 ووجوب الطاعة والاحترام ، وفى التنظيم القبلى يلعب الشيخ دورا
 عظيما ، ويقابل بالولاء والطاعة ، فهو يحمل عقائد وأفكار قبيلته ، وقد
 ذكر « رافائيل باتى » أن سلطة شيخ القبيلة لا تقوم بناء على القوة ،
 ولكنها تقوم على السمعة والحكمة والمكانة التى يحظى بها *

وهنا نجد لذل فرد حريته واستقلاله ، ولكن هناك حلقة وصل تربطهم
 جميعا بعضهم لبعض ، وأنولاء والعون لفرد يعنى كذلك للجماعة ، ووحدة
 الأصل والتعاون والمصلحة العامة هى القانون ، وهى العرف لدى
 هؤلاء البدو *

« لا يمكن أن تقع حادثة لبدوى دون أن تهب كل القبيلة لنجده » *

ولأن قرية مخطلة ليست فى نطاق حكم والى البريمى فان الشيخ
 عبد الله يشغل وظيفة شيخ البلدة ، والوالى فى نفس الوقت ، وتضم هذه

البلدة اثنين وثلاثين قرية تحت سيطرته ، ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف بدوى من بنى سعد *

والجريمة داخل القبيلة لا تعنى جريمة بين جميع أفراد المجتمع ، ولكنها بين أسرة القاتل وبين القتيل فقط ، وقد يكون للجريمة قصاص ، أو دية ، حسب ما يريده أقارب القتيل *

ومعيشة البدو هنا * وبكل المعايير ، تعتبر مثالا لكيفية العلاقة التى تقوم على نظرية « البقاء للأصلح » وقدرة الانسان على تكيف حالاته مع الظروف السائدة هنا فى الصحراء وحيث الطبيعة القاسية ، وحيث الذين يولدون فى هذه الظروف القاسية ، والذين يعانون من المرض والسكن الرديء ، تلك المعيشة البدائية ، وعلى الانسان الذى يعيش هنا أن يتحمل كثيرا فى هذا المكان الموحش بين الذباب ، والعقارب ، والوحوش ، ورغم الجوع والعطش القاسى والحالة الاقتصادية السيئة التى تحيط به ، فإنه يغزو كل ذلك ، ويقاوم قسوة الطبيعة ، وجهها لوجه ، ويشير الى نفسه بفخر واعتزاز ، وكأنه ليس هناك على الأرض من يساويه ، أو يصل اليه ، وهو راض عن حالته هذه ، ويشعر أن الدماء تجرى فى عروقه هى الأفضل ، وهو يفصل الجنة عن كل ممالك الأرض ، التى تبدو فى نظره صغيرة للغاية ، وبلا معنى ، أو فلتقل بلا وجود حقيقى ، فهى فى نظره أوهام الحياة الدنيا ، وتدور كل أفكاره حول الله ، الذى يمنحه التفكير ، ويشعر أنه بدون الله سبحانه وتعالى لن يتمكن من التفكير أو الحديث ، أو عمل أى شئ ، وهذا الكفاح الذى لا ينتهى أو يضعف فى بيئته الشاقة حيث المرض والعراء بلا ماء قد جعلت العربى قويا وشجاعا لا يكل ولا يتعب *

وحياة البدو ترتبط — وبدرجة قوية بالشرف والكرامة ، فهما تاجه

الذى لا يستطيع الحياة أو السير بدونه ، أو بدون سمعته الحسنة ،
واذا حدث وخذش هذا الشرف ، أو تلك الكرامة ، فإن الموت هو
الحل أمامه •

والجريمة السوداء عند البدوى هى خيانة الصديق ، فالبدوى
يضحى فى سبيله بنفسه ، ويقسو على أعدائه بلا هوادة أو رحمة ،
والبدوى يجب القوة والاحترام • ويرفض أى علامة من علامات الضعف ،
وكما قال « هيرودوت » ان العرب يحفظون العهد اكثر من أى انسان
آخر •

وقد وجدنا أن العرب مخلصون ، مفكرون ، يتعاونون ، ويحفظون
الصدقة ، ويتميزون بقوة شخصيتهم فى التعامل وفهم الآخرين ، والبدوى
ليس مهملاً ، وليس أيضاً ساذجاً ، كما يوحى مظهره عند النظر اليه
للوهلة الأولى ، ولكنه ، وبطريقته الخاصة ، ينتصر على كل الصعاب
والمشاكل التى تواجهه ، وللعربى عقل ذكى ناب ، والعمليات العقلية التى
يقوم بها بسيطة ومباشرة تمده بالاستنتاج الراسخ • وهو ذو نظرة
منطقية للأمور وقليل من الرومانسية ، وعندما يتعامل مع انسان غريب
لأول مرة تجده يتخذ الكذب شعاراً لمعرفه حقيقة هذا الغريب ، فالعربى
من طبعه الشك ، والبدوى بطل كذلك فى اتصالاته وعلاقاته الاجتماعية ،
وهو واثق بنفسه ، راض دائماً وقنوع بما هو عليه ، يصمم دائماً على
الطريق الذى يسير فيه ، ورغم أن الحرية الانسانية نسبية فى كل
المجتمعات الا أنه لا يوجد من هو أكثر حرية من العربى فى الصحراء ،
أما المفتاح الخاص الذى يستخدمه للتغلب على الصعاب الطبيعية وعدم
تقييد الحرية فهو عدم الراحة ، والنشاط المستمد المتزايد •

وقد يأتى من الأحداث والمواقف التى تثير أعصاب البدو الى

حس ما ، وربما تحتّم عليهم الظروف ارتكاب جريمة ، ولكن العدوان والاثم ليسا من سجايا البدوى ، فهو يشعر بالندم وعذاب الضمير بعد ذلك ، والبدوى هو أب للصحراء وليس ابنا لها *

ويحتبر غياب وجود حكومة مركزية هو المسئول الأول عن عدم توافر مشروعات تنمية جماعية واجتماعية في هذه المناطق ، وأؤكد أنه لو توافرت هذه المشروعات الخاصة بالتنمية لشهدت الصحراء مزيدا من التقدم والازدهار *

وعند الظهر تركنا منزل الشيخ عبد الله ، عبر وادى الجزى ، وسرنا في الطريق الى صحار ، وعلى كلا الجانبين كما نرى تكوينات من الأحجار الجيرية ، وتعرف هذه المنطقة باسم « مجان » ، وتحتوى هذه المنطقة على النيكل والنحاس ، ثم وصلنا الى جبل كامور ، وشاهدنا في اليسار جبلا منعزلا ، على رأسه برج مراقبة ، ويرفرف عليه علم السلطان ، وعلى اليمين يوجد أحد مكاتب جيش السلطان ، ثم مساحات واسعة من الواحات الخضراء الجميلة ، وأشجار النخيل ، وأشجار الفواكه الكثيرة ، ثم على البعد حصن قديم والكثير من الأطلال ، ثم أحد الأهلج ، وقد جذبني للغاية هذا النظام البديع للرى *

وفي الطريق أمضينا ليلة باردة في الصحراء ، ولكننا لم نشعر بقسوة البرد ، فقد كنا سعداء للغاية ، وبعد فترة ليست طويلة من التجول في الصباح وصلنا المقابر المنتشرة على أطراف صحار ، بعد رحلة رائعة بديعة *

الفصل التاسع

البحث والتنقيب في صحار — ليست هناك مدينة
 قديمة — القراء ٠٠ بحيرة دربات — القبائل الأربع
 في القراء — الأحوال والظروف السائدة

في فترة غيابنا ، كان « رى » يحتفظ بفريق البحث والتنقيب في صحار وقد ودعنا ساندى في نفس اليوم في الشارقة ، حيث أقام فتحة كبيرة في تل رئيسى هناك ، بمربع يبلغ عمقه خمس عشر قدما جنوبى المدينة ، وكان التل يقع مباشرة بمواجهة مكتب الجمارك المجاور للبحر ، والذي اتخذنا فيه مقرا للرحلة الاستكشافية ، وكانت هذه الحفرة على بعد مائة وخمسين ياردة من البوابة الغربية لسور المدينة ، التى انهارت بأكملها ، مخلفة وراءها ملامح الفن المعمارى الذى كانت عليه . ولم نعثر على أى نوع من المبانى فى المستويات السفلى للحفر ، وكانت هناك بعض قوالب من الطوب تدل على وجود صناعة للطوب ، على قرب من هذا المكان ، ولكنها لم تمتد لبقية المنطقة .

وقررنا أن نقسم المجموعة الى فريقين ، فريق يبدأ من الفجر وحتى المساء ، على أن يكمل الفريق الآخر بقية اليوم ، وقد كانت هذه الحفر التى قمنا بها بجوار الأجزاء العلوية فى أعلى جزء من التل الرئيسى ، ويعود الطوب المستخدم هنا الى القرن السابع الميلادى ، ووجدنا كذلك قذاعتين من قطع القيشانى الأوربية ، وكذلك وجدنا بعض الحفريات لتاريخ القرن الثامن الميلادى ، ووجدنا كذلك الكثير من التحف التى تدل على الابداع فى فن الزخرفة ، وأيضا وجدنا تكوينات من الطوب ، وقوارب

صغيرة كانت تستخدم قديما في نقله ، وقد تم العثور على أنواع كثيرة من هذه القوارب في الشرق ، والتي يبدو أنها كانت تأتي من بعلبك •

المهم أنه ليس هناك أى أثر لمدينة قديمة ، وحتى لو وجدت آثار مدينة قديمة ، فان عوامل البحر وزحفه الى الشاطئ ربما يكون قد قضى على آثارها أو محات تلك الآثار •

وتؤكد الأبحاث الجيولوجية أن الرخاء والازدهار التجارى في صحار لم يرد ذكره الا في المصادر الأدبية أو القصصية وليست المصادر الجيولوجية •

ويعود النظام البديع الخاص بالأفلاج ، والقنوات هنا الى القرن العاشر الميلادى ، ويمكن القول بأن مبانى ومنازل صحار التى فرقناها من البقايا الخاصة بصحار لم تكن تبلغ من الروعة والسمطة ما كانت عليه بغداد مثلا بعد الاسلام ، ويمكننا القول كذلك ، أن صحار لم تستطع الاستفادة من الحضارات والثقافات التى كانت تحيط بها وراء الصحراء والبحر •

ثم نعود الى رحلتنا :

وصل الشيخ صقر من مسقط ، وهو يحمل تعليمات من السلطان الى الشيخ عبد الله ، تقتضى سفره هو والشيخ صقر الى البريمى معا ، وبالشغل ودعنا صحار في يوم الجمعة ٣١ من يناير عام ١٩٥٨ ، وعندما وصلنا وجدنا حجرة رسمية معدة للاستقبال ، وقد تم اعدادها خصيصا لنا ، وكان الاستقبال حارا ، وطلبنا من جلالة السلطان أن يسمح لنا بتصوير فيلم في القصر ، وتكرم جلالته بالسماح لبيل بالتقاط بعض الصور لجلالته •

وفي اليوم التالي ، حضر طالب وعبد الكريم لتوديعي ، ولطالب وعبد الكريم قصص وذكريات معي ، ولكن المقام لا يتسع لذكرها •

وفي المساء جلست مع جلالة السلطان ، وقد سره كثيرا ما سمعه عن تفاصيل رحلتي مع الأطلال في صحار ، وأيد طلبتي بخصوص الحفر في ظفار ، وأن يكون برئاسة جاما ، خلال فترة عودتي الى نيويورك ، ثم حدثنا جلالة السلطان حديثا عظيما ، ومن القلب ، دار حول توقعاته لمستقبل عمان ، ثم تحدث بصراحة منقطعة النظير ، وقال : إن الأخطاء وجوانب القصور والضعف الحاضرة ليست خطأه ، ولكنها أخطاء موروثية ، وأنه يبذل قصارى جهده لتغييرها تدريجيا ، فهو يتمتع بأفكار تقدمية ، ولكن لا يمكنه أن يطبق هذه الأفكار بسرعة ، لأنه بذلك ينفصل عن شعبه •

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة منطقة القراء ، وكان سكانها بمثابة لغز من العصور القديمة •

وقد عرف كتاب اليونان والرومان الذين كانوا يجهلون أجزاء كثيرة من الجزيرة ، ومن خلال اتصالهم بسورية وفلسطين ، أن هناك مساحة كبيرة من الصحراء العارية في تلك المنطقة ، وقد عرفوا من المسافرين أن الجزيرة ليست كلها كذلك ، ولذلك فقد سموا الجزيرة « بالجزيرة السعيدة » و « الجزيرة الصحراوية » ولكن الرومان واليونان لا يعرفون مثلما نعرف نحن الآن عن هذه المنطقة ، حيث الأشجار العالية ، والنخيل ، والأطلال والمدن القديمة ، والفنون التي كانت هناك ، لقد فهمنا ظفار التي لا يعرفونها ، والتي اذا ما قورنت ببقية الجزيرة تعتبر جنة بأشجارها وعيون المساء فيها ، وكذلك ببحيراتها وشلالاتها ، والجبال التي تكسوها النباتات والأحراش ، وهناك تناقض كبير بين قارة آسيا ككل ، وبين ظفار التي تبلغ مساحتها حوالى ثمانية وثلاثين ألف ميل مربع ، وهى تقع في

جنوب مسقط بخط ساحلى يمتد مائتى ميل ، بين الأرض المعروفة باسم رأس دربات ، ورأس منجى ، والحدود الشرقية لظفار تمتد للسواحل من رأس منجى ، ولمسافة مائة وسبعين ميلا الى شمال رملة مغشن . وفى الشمال تمتد عبر الرمال لمسافة مائتى ميل . وتمتد الحدود من الجنوب خلال وادى شعيت وميتان . الخ ، ومن هناك حتى جبل صدافة فى وادى حبروت جنوبا الى « رأس دربات » على الساحل .

وترتفع جبال القراء رأسيا الى الشمال ، وتطل على السهل الساحلى الى ارتفاع أقصاه حوالى عشرة أميال ، وتنتشر هنا وهناك مجار مائية ، وكذلك بعض النباتات التى تغطى الجبال فى مناطق متفرقة ، وكذلك بعض الكهوف ، وهناك أيضا قطعان الماشية ، وفى الجانب الغربى من وادى نهاز ، قمت ذات مرة بزيارة لكهف شحور ، الذى يحتوى على تماثيل على شكل طيور ، وكذلك على عظام ، واذا كانت المعتقدات المحلية صادقة فإن الجن تسكن ذلك الكهف ، وإن كان من الخطورة بمكان ، ومن غير الحكمة ، أن نصدق مثل هذه الروايات ، التى تمنعنا من الاتجاه أو التقدم نحو أى مكان نريد البحث أو التنقيب فيه .

ويسمى سكان منطقة ظفار أنفسهم بالجبالي أو الجبالين ، ويطلقون على أنفسهم القراء ، أما قبيلة القراء فهى مقسمة الى حوالى خمس عشرة قبيلة ، فرعية ، وتنقسم كذلك كل قبيلة فرعية داخل نفسها حسب رابطة الدم ، وهم يعيشون اليوم فى منازل من الطين .

ومن عادات الناس هنا ملاقاتة بعضهم البعض بالقبلات وتشابك الأيدي ، وبعضهم يحمل السيوف ، ولرجل القراء قوة تحمل كبيرة ، وكذلك يتميز ببنيان جسدى قوى ، وهم عادة حليقو الذقون بلا لحية .

أما النساء هنا فهن صغيرات يتميزون بجاذبية محبة ، وهن غير محجيات على عكس نساء البدو وجميعهن ، وأحياناً ، وفي حالات معينة تتزين المرأة هنا باستخدام الألوان المختلفة في تجميل وجوههن ، ويتزوج الأبناء هنا عادة في سن الخامسة عشر ، أما الزواج والطلاق فهو سهل للغاية في القراء •

الفصل العاشر

الجزيرة العربية وغناها بالتوابل — أشجار اللبان — أشجار

المر — سد مأرب — أطلال جنوب ظفار القديمة وواحاتها

ترتبط رفاهية ظفار على مر العصور بلبانها الرائع ، الذى كان يمثل عمود التجارة الأساسى فى كل جنوب شبه الجزيرة العربية قديما ، وهناك اتحاد خاص من العوامل الجغرافية والمناخية ، منذ العصور القديمة ، قد ميز منطقة نجد ، التى تقع شمال جبال القراء مباشرة ، وهذه العوامل هى مصدر تلك العصور الأسطورية التى انتقلت عبر الجنوب الغربى ، وشمالا عبر البحر الأحمر ، الى المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد خلقت نوعا من الازدهار للمدن الواقعة على الطريق والمدن الرئيسية فى شبوه ومأرب •

ويعود أصل كل الأنواع الجيدة من اللبان والتوابل الى ظفار ، حيث كان يتم شحن بعضه على مراكب شراعية ، والباقى تحمله القوافل عبر وادى ميثان ووادى « فسد » حيث يمر الطريق بالربع الخالى ، ورغم أنه حتى الآن لم يعرف تاريخ الاستخدام الأول للبخور ، الا أن تجارته كانت مزدهرة للغاية ، وكان البخور من أغلى السلع التجارية •

وقد كتب الكثيرون من الرحالة والمستكشفين كثيرا عن بلاد البخور ، وعن ظفار بصفة خاصة ، عندما سلطت عليها الأضواء ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، ورغم أن « نبات المر » ينمو فى غرب الجزيرة العربية مع بعض أنواع التوابل والبخور إلا أن ظفار تعتبر هى الأولى ، من حيث انتاج التوابل •

وتتسرف قبيلة « بيت كثير » على انتاج البخور في ظفار ، حيث تتولى كل أسرة العناية بأشجار البخور الخاصة بها ، وهناك كذلك أشجار اللبان الذكر الذى يترك حتى يصفر لونه • وفى منطقة ظفار ، وكذلك فى جبال القراء ، ينمو المر على الرغم من أن بعض التقارير قد ذكرت عدم وجوده هناك •

ومن أبرز الأطلال والآثار القديمة فى ظفار تلك المنطقة الساحلية التى تقع شرق صلالة ، والمسماة الآن بالبلد ، والتى تعنى بالنسبة للسكان المحليين ، المدينة ، وهذا الاسم « البلد أو المدينة » يعنى كبر حجمها وأهميتها ، وأنها أول مدينة يطررها الجيولوجيون فى ظفار •

وقد كان أملنا كبيرا فى أن نجد آثار الحضارة العظيمة لجنوب الجزيرة العربية • ولكن فى « البلد » كانت الآثار قديمة جدا ، بالدرجة التى لا تمكننا من العثور على ما نريد ، وعلى الحدود الشمالية لجبال القراء تقع منطقة حنون على بعد ستة وثلاثين ميلا ، شمال صلالة ، على طريق جبلى وعر • وهذا المكان معروف جدا لدى البدو ، حيث إنه فى أعماق ذلك الوادى حوض مياه ، وهذا الحوض يعنى الحياة ، بدلا من الموت ، بالنسبة لراكب الجمل ويقول السكان المحليون : إن الحوض يشبه الكوب العملاق الموضوع فى الأحجار الجيرية الصلبة ، والذى يمكن أن يحفظ الماء لمدة اثنى عشر عاما ، ويبلغ قطره حوالى عشرين قدما ، أما عمقه فيصل الى ثلاثين قدما ، وربما كانت البئر أو الحوض هذا يتغذى من باطن الأرض ، ويظل مليئا بالماء ، رغم عدم سقوط الأمطار فى بعض الأحيان •

وقد أدرجنا آثار حنون فى بحثنا عندما رأينا نقوشا ورسوما أثرية

هناك ، وبعدها انتهينا من حنون وبدأ الحفر في سمهورام بعد أن قمنا
بنقل المعدات الى خور رورى وأقمنا المعسكر •

وأول شيء عثرنا عليه ، هو رأس قمة عالية من جبل لم نر مثله •
وهناك تكوينات من الطوب تدل على وجود تحصينات دفاعية قديمة ،
كانت تستخدم للدفاع عن المدينة ، وهناك كذلك برج مرتفع في الشرق
خارج أسوار المدينة ، على بعد ست أقدام منها ، يقف عليه المحاربون
باعتباره موقعا هاما للسيطرة وإنزال الهزيمة بالأعداء • وكان أهم ما في
حملتنا هو العمل داخل هذه المنطقة الواقعة شمال سور المدينة ، حيث
يجد الجيولوجي آثارا لمبان قديمة عظيمة ، وفي أعالي الصخور توجد قطع
من البرونز الذى تم اكتشافه حديثا بالمنطقة •

ومن أهم المناطق التى حيرت اهتمام المستكشفين في ظفار تلك
الواحات التى تبعد بمسافة سبعة وخمسين ميلا شمال شرق صلالة ، في
وادي النطور المتسع على الحافة الجنوبية لنجد • وتسكن وادي نطور
هذا قبيلة البطاهرة ، وقد وجدنا في هذه الواحات كذلك بعض الآثار
القديمة •

ومن موقعنا هذا وخلال ساعة تقريبا وصلنا الى تكوينات مدهشة
تشير الى وجود أنواع من الزراعة قديما • كما وجدنا هنا اثنتى عشر من
مجموعة من أكوام الصخور ، وقد كانت وبالتأكيد مدافن تقع على
الطريق المستقيم الذى يجرى شمالا وجنوبا ، كما يوجد هنا خط مستقيم
بموازاة الغرب ، يتكون من مناطق حارة جدا ، وكانت هناك نقوش
على بعض الأحجار ، ولكنها كانت غامضة وغريبة •

وبعد عشرين دقيقة لهت فيها أنفاسنا وصلنا الى أطلال ماسونية
وأسوار على قمة هضبة مستديرة ، يبلغ قطرها حوالى خمسين ياردة ،

وهناك سور دفاعى فى الجزء الشمالى ، وأفضل تفسير لهذه الأطلال هو أنه كان يوجد هناك حصن للحراسة والسيطرة على مزارع اللبان الذكر ، وأنها كانت منطقة هامة لإنتاج البخور ، وعلى أية حال فإن واحات نظور كانت محطة هامة للراحة على طريق القوافل المارة فى الطريق الى الخليج فى الشمال ، والى حضرموت فى الغرب ، وكان على ممالك حضرموت أن تحصن واحات نظور ، للسيطرة على تجارة البخور واللبان ، وهكذا كان الهدف من إقامة هذا الحصن ♦

وقد كانت حنون وخور رورى ونظور هى المواقع الوحيدة فى ظفار كلها ، التى يمكن القول ، بأنها تعود الى عصور ما بعد الاسلام ♦

الفصل الحارث عشر

زنوج ظفار — ملكية الأرض — البحث في أطلال حاسك —
 الربع الخالي — الرمال — سور كاشف — بيت كثير —
 البحث عن إتر في سبأ

كانت السمة الأساسية لأي نظام حكم في الجزيرة العربية في الماضي هي عدم الثبات والاستقرار ، واليوم تتمتع ظفار بالأمن والرخاء ، ويعيش سكانها عيشة رغدة ، لا يخافون شيئاً ، ويبدو — في الحال — عند الوصول إليها أنها هي البلدة الوحيدة التي ينظر إليها السلطان بعين الاعتبار ، وقد كان مجلس الوزراء الذي تم تشكيله عام ١٩٢١ بأمر جلالة السلطان تيمور مسئولاً عن كل المحافظات في عمان ، والإشراف على جميع الولاية ، عدا ظفار ، التي كان واليها مسئولاً مباشرة أمام السلطان ، وليس تحت إشراف مجلس الوزراء ، وتعتبر العاصمة صلالة جميلة نسبياً عن بقية المحافظات ، بشوارعها الواسعة أكثر من كل المدن العربية ، وتضم قصر السلطان ، وتوجد مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث ، ومستشفى بمعدات حديثة ، ويمكن أن نرى صلالة على خريطة شركة أرامكو ، كما يمكن القول بأن المجتمع المطل على شاطئ البحر ، والذي يضم القصر ، والمدرسة ، والمستشفى مكان منفصل ، يطلق عليه اسم الحصن .

ثم وصلنا الى العمورة بعد خمس وعشرين دقيقة ، حيث الحدائق الجميلة وسط أشجار النخيل ، كما تنتشر هنا أشجار جوز الهند .

وهناك أربعمائة شجرة لبان مزدهرة ، وهى الأشجار التى أمر بغرسها
جلالة السلطان ، وهنا ، وفى هذا المكان ، يوجد حمام كبير للسباحة
وماء عذب ، ويأتى هذا الماء من عين كبيرة فى وادى رزات ، ويقدر
هذا الماء بأربعمائة ألف جالون ، وهنا تقسم الأراضى الزراعية الى ثلاثة
أنظمة يعترف بها :

١ — ملكية خاصة •

٢ — إيجار طويل المدى من الدولة •

٣ — إيجار قصير المدى لانتاج محاصيل سنوية للدولة •

والمزارع هنا تتكون مساحاتها من خمسة الى عشرة أفدنة ، والرى
هنا يعرف بنظام الآبار ، وذات صباح بينما كنت أجلس مع جلالة السلطان
فى القصر حدثنى جلالته عن أطلال حاسك ، والتى تقع فى الجانب الغربى
من جزر كوريا موريا •

وقد كان لحديث السلطان أثر شديداً فى نفسى ، أثار رغبتي فى
الاستكشاف ، والبحث فى تلك المنطقة ، وبعد أسبوع أبهرت من مرياط
فى الشرق باتجاه السهل الساحلى ، وكانت هذه هى رحلة السلطان حقاً ،
فقد أمدنا بكل شئ من طعام وماء ، بالإضافة للقارب الذى زودنا به ،
وهو قاربه الشخصى ، ومجموعة من الأسلحة ، والعملات الفضية التى
ربما نحتاج فى الطريق ، وكان معنا ابن والى ظفار ، الذى كان راغباً
رغبة شديدة فى أن يتعلم الانجليزية ، وقد كنت فى هذه المرحلة فى بداية
معرفتى باللغة العربية وحاولت تحسين لهجتى عن طريق تعليمه
والتحدث معه •

ويمر هذا الساحل المجهول من صلالة في الشرق الى « صور » على امتداد خمسمائة ميل ، وكنا نحصل على حاجتنا من المؤن التي نحتاج اليها من القوارب المارة •

وتعتبر جزيرة محوت في خليج مصيرة هي المحطة التجارية الهامة على الساحل ، والثانية بعد صور خلال فترة ازدهارها ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت الصادرات الوحيدة هي التمر والأصداف •

ووصلنا الى قرية سدح التي تشتهر بالصيد ، ولها ميناء جيد تحده جبال الجرانيت ، وبعد الاستقبال الرسمي الكريم سمحوا لنا بالبقاء حتى الثانية صباحا بهذا الميناء • وهذا ميعاد مناسب للوصول الى حاسك في وسط النهار من اليوم التالي اذا سارت الأمور على ما يرام •

وفي حاسك كانت المباني مشيدة على جانب الجبل بمواجهة البحر ، وهناك الجبال الأخرى المظلمة ، والتي لو جاءها أعداء من البحر لغزوها لفقدوا أثرها ، وهناك كتلة من الصخر الصلب على ارتفاع أربعة آلاف قدم ، وتضم الأطلال الممتدة « بلا أسوار » منازل صغيرة وعديدة ، ليست مبنية من الحجر الجيري ، وليس عليها أغطية وقائية من الرمال ، وبعد توزيع الرجال لجمع عينات الصخور ، قمت بعمل ثلاثة عمليات تنقيب في ثلاثة أماكن •

وتعتبر حاسك إحدى الأماكن القديمة لمقبرة النبي هود عليه السلام ، ورغم أن بطليموس ذكر ذلك ، إلا أن هذا كان غريبا بالنسبة لى ، لأننى لم أجد أية أدلة ، وقد ذكر « البكرى » المتوفى عام ١٠٩٤ ميلادية حاسك كحدود غربية لعمان ، بينما كتب الادريسي ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، واصفا هذا المكان نقلا عما كتبه الرحالة والمسافرون بقوله أن

المدينة الآن شبه خرائب •• تسمى « سوق حاسك » ويسكنها قبائل القراء
وقبائل أخرى من دولة اللبان •

ويعد ذلك تحدث عنها ابن بطوطة قائلا : إن الناس يقيمون المنازل
هنا من عظام الأسماك ويغطونها بجلود الجمال •

وقال « س • ب — هانز » إن الناس هنا يعيشون على الأسماك
فقط • ووجدنا بين الأطلال مقابر إسلامية حديثة ، لا يتعدى تاريخها
مائتى عام ، ولم يكن لدى الطاقة اللازمة لفحص التحصينات الصخرية
في الجبل المطل على المدينة ، ولكن بمعاونة الصيادين قمت بذلك ، ووجدت
أطلال مبان وأشجار تمر ، وسنط •

والدنيا لدى الكثير من الجغرافيين العرب هي عبارة عن كرة تطفو
فوق سطح البحر ، نصفها تحت الماء والباقي خارجه ، وهناك منطقتان ،
إحداهما • مسكونة والأخرى مهجورة ، وإذا كان هذا صحيحا فإن هذه
المنطقة المعزولة تعد من المناطق الصحراوية عديمة الحياة •

وفي جنوب ووسط الجزيرة يوجد هناك الربع الخالى ، برماله الناعمة ،
التي لا يمكن السير فيها ، وهى رمال الموت ، والتي تحتل تقريبا مساحة
خمس وعشرين ميلا مربعا ، في جنوب وسط جزيرة العرب ، يحدها من
الشرق جبال عمان ، ومن الجنوب جبال القراء وحضرموت ، ومن الغرب
جبال اليمن والحجاز ، وشمالا الأجزاء الصخرية الممتدة على حدود
المملكة العربية السعودية ، وهناك نظام بديع للرى والصرف من خلال
الجبال العالية ، وهناك أودية فسيحة كثيرة في الربع الخالى ، ذات كتل
كبيرة من الرمال •

ورغم أن سقوط المطر نادر هنا فإن هناك الكثبان الرملية ، ولها نظام خاص يخضع لاتجاهات وقوة وتنوع الرياح المحلية ، والجافة الجنوبية من المنطقة الرملية تمثلها مجموعة كبيرة من الكثبان الرملية ، متنوعه الالتسخال ، وهي التي تجاور الصخور الضخمة ولا تتأثر بها ، وعلى البعد من ذلك شمالا توجد كثبان رملية أكبر حجما ، وتنحدر ناحية الشمال ، والشمال الشرقى ، وتحمل الرياح القادمة من الجنوب رمال الأودية ، وتلقى بها بالقرب من الريف ، وبسبب الرياح العاتية التى تهب على هذه المناطق فقد تزحزحت الرمال الى الأجزاء الصخرية الحادة ، وكونت مناطق تعرف بالشقين ، ومصدر هذه ليس معروفا ، ولكن يعتقد أنها تأتى من وراء الخليج ، وهناك منطقة الربع الخالى الحافلة بالرمال ، واصطلاح الربع الخالى هذا معروف جيدا لمدى الأجانب ، وقد تحدث عن هذه المنطقة كثيرون من المستكشفين مما يدل على مدى شهرتها لدى الأجانب ، ومن الصعب تحديد حدود الربع الخالى حيث الرمال الشاسعة وانعدام المساء ، ونقص المعام تقريبا ، وحية الرحالة فى الربع الخالى غير مستقرة ، وغير سعيدة بسبب الغارات ، والمياه التى تسبب الخلافات بسبب قلتها ، وكذلك بسبب الحالة التى يعانىها البدو فى ترحالهم مع نسايتهم وأطفالهم ♦

و ذات مساء أعددت العدة لعمل محاولة لاختراق المنطقة الشمالية من الربع الخالى ، والتى كنت قد بدأتها من قبل على ساحل ظفار ، وقد كان لى هدفان :

الأول : أن أحدد بوضوح عين الماء فى خفصة التى زارها « ويلفريد » على ظهر الجمال عام ١٩٤٥ ♦

ثانيا : البحث عن المدينة المفقودة أبر ♦

وكان رفاقى فى الرحلة الشيخ حميد بن حامد والى ظفار ، وأيضا رفاتشى الجيولوجيون ، وفى نحو الشمال مرورا بالأودية العلوية لجبال القراء فحصنا بعض التكوينات الصخرية ، وفى النقطة النهائية قبل الدخول فى الرمال الشاسعة نتفع منطقة دوخة فوق مئات الاميال من الساحل ، ثم عبرنا وادى بين خاطر ، وسرنا عبر الجانب الشرقى من الوادى الى أم الحياة دما يسميها البدو ، ثم آقمنا معسكرا فى وادى أريفى ، حيث أشجار السنط ، وعانلات البدو الفقيرة والحيوانات والجماد ، التى تتغذى على النباتات البرية ، والبدو يقيدون حياتهم فى نطاق الجبال والبنادق والمثار ، ثم سرنا شمال الوادى ، وهناك فى منطقة قريية أمضينا ليلة سعيدة ، وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث مع الوالى ، والذى يبلغ من العمر أربعة وستين عاما ، وهو رفيق صدوق من قبيلة بنى غافر ♦

وفى الصباح كان طريقنا من الشمال للشمال الشرقى ، ثم دخلنا بعد ذلك فى رمال متواصلة ، ثم حدد الشيخ الطريق قائلا ، إننا فى خفصه ، على مسافة سبعين ميلا للدخل من الربع الخالى ، وقد كانت المنطقة المجاورة تقريبا من أحجار الكربونات ، وكانت عارية تماما وعديمة النبات إلا من بعض الأشجار التى تنمو على الكثبان الرملية القريبة ، وتقع عين الماء داخل الكثبان الرملية تقريبا ، وللماء فى هذه المنطقة اعتبار خاص بدرجة قصوى ، وفى الجزء الجنوبى من الربع الخالى والمسمى بخفصه يقال إن عين الماء قد حفرت عن طريق شهاب سقط وحترها ، وليس من عمل النبى آدم عليه السلام ، وهذا الموضوع يمكن تفسيره ♦

ثم قمنا برحلة بطائرتنا « الداكوتا » لاستكشاف المنطقة ، وكنا على اتصال دائم بصلالة بالاسلكى ، حيث كان من الصعب تحديد منطقة خفصة بسهولة ودقة عن الخريطة ♦

وفي النهاية حددناها بـ ٨٩ ميلا شمال دورة و ٤٥ ميلا في الشمال الغربي من مغشن ، على مسافة مائتين ميلا من صلالة على الساحل . وكانت خفصة في الكثبان الرملية ، ويسكنها بعض من قبيلة كثير ، يرعون اغنامهم ، ويحملون بنادقهم على اكتافهم ، وقد يكفيهم ماء الأمطار — الذي يسقط لمدة ثلاثة ساعات في السنة وللغشب هناك أهمية كبيرة لهؤلاء الناس ، فهو الغذاء الوحيد لجمالهم ، وكما روى عن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنه قال ما معناه إن صحة الجبل من صحة صاحبه .

ومن عادات « بيت كثير » تفضيل إناث الجمال في رحلاتهم الطويلة والحكمة العربية القائلة « إن الله خلق البدوى للجمال وخلق الجمل للبدوى » حقيقة ، ويمكن ملاحظتها بدقة ووضوح في قبيلة « بيت كثير » والبدوى هنا يعتبر أن الجمل هبة من الله ، وهو قد يفضل على أسرته ، ومن عاداتهم أيضا أنهم لا يتزوجون في شهر صفر ، ويقدم نصف المهر للأب ، والنصف الآخر يقسم بين إخوة العروس ، ويقوم الأب بالانفاق والاعداد للزفاف .

وودعنا الوالى في دورة ، وعاد الى صلالة كى يقدم للسلطان تقريره ، وبعد راحة قصيرة ، قمنا بإعداد الفريق للبحث عن أبر « المدينة المفقودة » .

وكما تحكى القصة الأسطورية عن أبر ، أنها كانت مدينة مليئة بالقلاع ومليئة بالأغنياء ، وكان بها حصن من الفضة ملئ بالعملات ، وكانت المدينة تقع وسط الواحات الغنية في المنطقة المعروفة الآن باسم الربع الخالى . وينتمى سكانها الى قبيلة « عاد » وكانت هذه الواحات تسمى بجبات « عاد » حتى أنزل الله غضبه عليهم للخطايا الكثيرة التى كانوا يقترفونها .

(م ٧ — رحلة الى عمان)

ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى التى أقيم بها للبحث عن المدينة المجهولة ، ولحنى قمت بمساوله سابقة فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٥٣ بدأتها من تيزور ، وهو المكان الوحيد المعنى بالماء فى تلك المنطقة ، وتختفى هذه المين وراء الأكوام الجيرية والصخرية التى تراكمت عليها ، وحتى عندما صعدنا فوق هذه الأكوام كان من الصعب علينا أن نرى الماء ، ثم رحلنا بعد ذلك ، وقد أسرعنا عند رحيلنا بسبب العواصف الرملية التى هبت علينا ، ثم دخلنا ثانية فى المناطق الرملية العميقة ، وللحق ، فإننى أقول ، إنه من الصعب جدا القيام برحلة استكشافية جيولوجية فى تلك المناطق بالسيارة ، أو بالطائرة ، بسبب الرمال الناعمة العميقة التى تغطى الأرض ، والعواصف الرملية التى يمكن أن تسبب الكوارث . أما الحقيقة التى خرجت بها فهى ، أن الجمل يعتبر هو الوسيلة الوحيدة بالنسبة للإنسان فى هذه المناطق وعليها يعتمد فى حياته .

وفى الطريق أوقفنا مجموعة من « بيت كثير » لنستفسر منهم عما اذا كانوا يعرفون مدينة أبر ، فصاح أحدهم فى أذنى « الشيطان هو الذى يعرف » وحدثنى مرشدى الشيخ مسلم عن الأطلال هنا ، وذكر أنه رافق من قبل الجيولوجى الشهير « ثيبسيجر » ولكنهم ضلوا الطريق هنا ، وصحراء العرب مفعمة بالقصص التى تتناول الذهب المدفون فيها ، ولكنها أضغاث أحلام .

وفى شمال الوادى رأينا الكثبان الرملية على كل الجوانب ، رأينا مجموعة من الجبال الصخرية من الكتل الرملية ، وجلسنا لتناول الغداء ، ثم أخذنا نتجول فى الشرق والجنوب من هذه الكثبان الرملية ، وفجأة

صاح رفيقى الجيولوجى « شارلى » من « كاليفورنيا » هاهى ذى الآثار ♦
غير أنى أعتقد أنها آثار لقوافل كانت تمر من هذه المناطق الخالية منذ
زمن ، وبعد رحلة شاقة اتخذت قرارى بالعودة الى صلالة ، بعد أن
أنهيت رحلتى للبحث عن أبر ♦

وبهذا انتهت قصتى مع عمان وشعبها ، وهى قصة حافلة بالمغامرات
المتتالية : والتى تحتاج الى الكثير من الكتب لتسجيل أحداثها ♦

خاتمة

على أسوار البوابة الداخلية للمدينة القديمة سمهورام توجد نقوش كثيرة تشير الى ملك حضرموت ، ومدین ، وسبأ ، حيث كانت شئون الحكم تدار منها •

وتقع سبأ شمال جبال القراء ، على حدود ظفار ، ولذلك فقد كان هناك دليل حقيقى يربط مدينتنا المفقودة سمهورام في ظفار بسبأ عاصمة مملكة حضرموت القديمة • والتي تقع في الغرب على بعد خمسمائة ميل • وقد كتبت عام ١٩٥٥ أن سبأ هي اللغز الذى يحاول كل مكتشف يأتى لجنوب الجزيرة العربية أن يحله ، حيث إن الرمال هناك تغطى التماثيل القصور والكنوز المدفونة ، والتي تجعلها من أهم البقاع •

وقد تحدث بلينى عن وجود ثلاث ممالك قديمة وهي ميثان ، وقطيان ، وسبأ كما ذكر « سترابو » الملكة الرابعة وهو سبوتا ، وقد كان هناك ملك واحد هو الذى يحكم كل هذه الممالك ، وكانت مدنا مزدهرة ، تزينها تماثيل وقصور جميلة ، وكانت منازلها تشبه منازل مأرب •

وقد ذكر أحد المستكشفين الهولنديين عن حضرموت ما يأتى : « كانت سبأ مدينة هامة ، فقد كانت تضم قصر الملكة ، التى بدأت زيارتها منها الى الملك سليمان في القدس ، ولهذا اكتسبت سبأ شهرتها ، ويمكن القول بأن هناك أنظمة للرعى رفيعة المستوى عرفت في تلك المنطقة » بسد مأرب • بالإضافة الى موقعها الاستراتيجى ، كعاصمة لحضرموت • وكذلك تحدث عن أحواض الملح بها ، ثم سيطرتها على كل التجارة القادمة من غانا •

ثم كانت رحلتى التالية الى وادى حضرموت الذى ذكر عنه البروفيسور و . ف البريت فى حديث شخصى :

« إن وادى حضرموت هو المنطقة الأكثر جودة فى جنوب الجزيرة العربية كلها ، فهو أكثر اتساعا من أى واد آخر ، والماء فيه قريب من السطح أكثر من أى مكان آخر ، باستثناء بعض الواحات القليلة ، ولذلك كان من السهل على المقيمين فيه أن يزرعوا أجود المحاصيل فى التربة الطمودية الخصبة ، ولذا فمن المحتمل أن يكون هذا الجزء قد شغله السكان قبل أى جزء آخر .

وعند ظهور الجمل فى الألف الثانية قبل الميلاد كانت هناك تجارة مزدهرة للغاية ، وأقدم عاصمة عرفناها هى سبأ ، وخاصة بالنسبة للنقوش والرسوم التى يعود تاريخها الى ما بعد الاستيطان فى الوادى .

وقد لاحظت عام ١٩٥٠ مدى اتساع الوادى ، وهو نادرا ، ما يشبه واديا آخر ، وعند دخولنا للحافة الشرقية من رملة سبأ وجدنا سهلا رمليا متسعا ، يمتد بالقرب من مأرب فى اليمن غربا لمسافة مائتى ميل الى بداية وادى حضرموت شرقا ، ومن تمنا فى ميهان شمالا الى النقطة القوية التى تنحدر باتجاه الربع الخالى ، والآن نعبر للمرة الثانية تلك الرمال الصعبة بسرعة خمسين ميلا فى الساعة . ثم وصلنا الى بعض الأطلال فى تلك المنطقة حيث توقفنا للبحث .

ويمكن القول بأن عمل الجيولوجى هنا من أصعب الأعمال ، فهناك من لا يتعاون معنا فى عملنا ولكن فى كل مكان كنا نذهب إليه كان هناك من يفهمنا ، ويفهم هدفنا من البحث ، والسير فى تلك المناطق المجهولة ، وكان هناك أيضا من لا يفهمنا ، وفى كثير من المناطق كان الشيوخ المصاحبون لنا يمنعوننى من دخولها ، ولكننى كنت أصر على الدخول لمعرفة خبايا

تلك المناطق ، وكانت البنادق تصوب في وجوهنا في مناطق كثيرة ، وتمضى ساعات في الاقتناع البطيء ومحاولة تصحيح الموقف ، ولكن في النهاية يمكن القول بأن العربى رغم شكه أول الأمر وعدم تصديقه لما نقول فإنه لا يصوب سلاحه الى مسالم أتى إليه بنفسه بغير ما نية في الأذى • وعندما يتأكد من غرضنا ينهال الكرم والتعاون ، ولكن ربما كان السبب في صعوبة التفاهم للوهلة الأولى هو طبيعة الحياة الشاقة القاسية للبدوى في الصحراء •

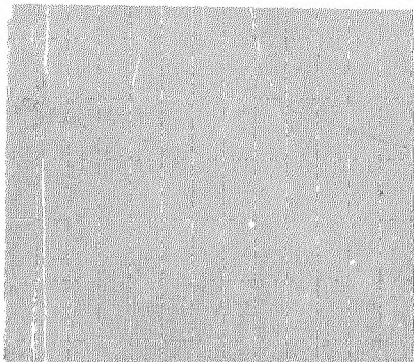
وعند عودتنا مارين بالمدينة تحرينا عن نقوش رائعة فوق أحد المساجد المحلية وعلما أن تلك النقوش تخص « يادا البين » ملك حضرموت ، وربما كان هو الملك الذى عاش في القرن الأول قبل الميلاد •

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة الملاحات الشهيرة في سبأ التى تشابه ملاحات أبادين في بيجان وإن كانت أصغر حجما ، وهناك وجدت بعض العملات القديمة التى يرجع تاريخها الى حقبة بعيدة ، وفي طريق العودة مرت بخاطري تلك الذكريات الحافلة ، والأحداث التى امتلأت بها رحلتى الاستكشافية ، والتى يمكن أن تشير الطريق لأى جيولوجى مغامر يحاول القيام برحلة استكشافية لمنطقة الجزيرة العربية •

— ١٠٣ —

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : الجبل الأخضر ومستط	٥
الفصل الثانى : الدين فى عمان	٢٠
الفصل الثالث : صحار	٢٨
الفصل الرابع : مقابر الملينة	٤١
الفصل الخامس : إرادة الله	٤٨
الفصل السادس : عمال صحار	٦٠
الفصل السابع : أحوال العرب	٧٢
الفصل الثامن : الرمال الحمراء	٧٧
الفصل التاسع : البحث والتنقيب فى صحار	٨٢
الفصل العاشر : الجزيرة السربية وغناها بالتوابل	٨٧
الفصل الحادى عشر : زئوج ظفار	٩١
خاتمة	١٠٠



853

